اوکسیتوسین

محمد حشمت

اوكـسـيـتـوسـيـن
محمد حشمت
تدقيق لغوي : د/محمود عوض الله
تصميم الغلاف : محمد درباله
رقم ايداع: ٢٠١٦/٢٣٠٥٨
ترقيم دولي: 978-977-6594-00-5

دار فصلة للنشر و التوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
www.fasla.org

مدير عام : عمر الحضري - مدير النشر : محمود محي الدين

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٧

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

أوكسيتوسين

محمد حشمت

دار فصلة للنشر و التوزيع

-مقدمـــــة-

--كان ياما كان ، كان هناك شــاب يحب فــتاة....-
--احـــم....لحظة من فضلك !
البداية تشى بأنها قصص حب تعج بالرومانسية ، هذا الطراز الذى يحكى عن شاب وسيم وقع فى حب فتاة جميلة ولأجل حبهم الأفلاطونى واجهوا العائلات وحاربوا الأعداء ! ، وهذا عكس ما وعدتنى به !
لقد وعدتنى انها قصص حب فعلا ولكنها لا تنتمى بصلة للرومانسية ، تحكى عن أعراض جانبية تصاحب السقوط فى حبال الحب ، أيضاً وعدتنى أن فى هذه القصص سيمتزج الحب بالموت حتى لا أستطيع تفرقتهما عن بعضهما !
والواضح من البداية أنك ستحكى قصص مبتذلة خطوطها العريضة بارزة للجميع !-
-- نعم وعدتك وسأفى بوعدى ، اعطنى الفرصة فقط وانصت لى باحكام..
كان ياما كان ، كان هناك شاب يحب فــتاة....-

الـيوم مختلف بكل تأكيد..
اليوم سينظر لى الجميع بحقد ، ستشتعل قلوبهم من الغيرة حتى تسود ضلوعهم ، اليوم سيقبل -نبــيـل- عرض زواجى
نعم انا فتاة وعرضت الزواج على شاب ، الى متى ستظل تلك الأفكار الصدأة فى عقولكم ؟! ، لماذا يجب على الرجل فقط ان يطلب الزواج وكأنه الوحيد الذى يحتاج هذا ! ثم ان امتعاض الرجال من فكرة كهذه أمر مغتفر نوعا ما ، لكن الفتيات لماذا يثير اشمئزازهم فكرة أن فتاة تطلب الزواج من شاب ؟! ، اذن لماذا حلوقكم تلتهب من الهتاف بالمساواة ! ، والشعارات المبتذلة على غرار -يجب على المرأة أن تمتلك أعضاء الرجل....ليس أفضل منها فى شىء !- وما شابه ذلك من مبالغة !
كما كان يقول لنا -نبيل- دائما فى اجتماع الجمعية :
-- يجب أن تبدأوا بأنفسكم ، لا تستهلكوا طاقتكم فى الصراخ والهتاف بالشعارات المثيرة للشفقة ، لا تنتظروا ردود أفعال ، بل اصنعوا انتم تلك الردود ، لماذا لا تجلسوا على المقاهى الشعبية وتدخنوا أحجار المعسل ؟! ، لماذا لا تذهبوا الى بيوت الشباب وتطلبوا الزواج منهم ؟! ، لماذا انتم دائما تنتهوا من الصراخ ثم تنتظروا شيئا ما ؟! ، ابدأوا بانفسكم ، والبداية هى اليوم ، الى المقاهى يا فتيات- وبعد كل اجتماع ننطلق الى مقهى ما وندخن المعسل ونلعب الطاولة ، وكل مرة نشعر بالعيون تلتصق بأجسامنا والسباب ينتشر بين الألسنة ، حتى أن أحدهم يوما بصق على الأرض ناظرا ناحيتنا بتقزز ، دعك من الضحك الهستيرى عندما يتملك منّا السعال بسبب الدخان الثقيل المنحشر فى أنوفنا !
-نـبـيـل- كان زميلى فى كلية العلوم ، كان اعجابه بى يتجلى فى نظراته وابتسامته

الخجول عندما يرانى وارتجاف يداه عند السلام ، كل تلك الظواهر الطبيعية المعتادة ، ومازال يذوب فى عشقى حتى يومنا هذا ، فانتهت أيام الجامعة ثم تكونت الجمعية وفاتت سنوات ومازال هو يرمقنى خلسة فى كل حين ، مازال الاعجاب يكتظ فى عيونه..مازالت ابتسامته خجول ويداه ترتجف عند السلام..
عندما كان يتحدث عن ضرورة ان تتقدم الفتاة الى الشاب للزواج كانت نظراته تغمرنى ، وكأن الجميع تبدد من حوله ولم يجد غيرى ليخبره بذلك
أنا أعشق -نبيل- ، أعشقه لدرجة أنى ذهبت لمنزله أمس وطلبت يده ، العجيب أنه لم يندهش من هذا وكأنه أمر ينتظره منذ دهور...ظهر هذا فى نظرة الانتصار التى قذفتها عيونه بتلقائية ، ولكن هذا بالتاكيد لأنه يذوب فى عشقى ! ، كان يوجه لى كلماته الممنطقة فى انتظار ذلك الحدث السعيد
أخبرنى بالأمس أنه سيفرحنى اليوم فى اجتماع الجمعية ، وأخبرنى أيضا أننى اخترت اليوم المناسب لأعرض عليه الزواج ، فاليوم هو أكبر اجتماع سينعقد منذ ان تأسست تلك الجمعية
اليوم مختلف بكل تأكيد !
ها انا ذا أسرع الخطى وألوك المسافة بقدر المستطاع ، السيارات تغتصب بعضها فى ذلك الزحام الخانق ، ولا مفر من السير على الأقدام..
أرى قاعة الاجتماع على بعد امتار ، الأضواء تنتشر فى كل صوب والسماء تتأجج بألوانها ، يجب أن أسرع أكثر ، لا أريد أن أفوت حرف يتفوه به -نبيل-
رغما عنى ازداد اتساع ابتسامتى وازداد الولع فى عيونى ، المسافة تنكمش اكثر والمدخل يلوح لى مرحبا
--ستندمى يا فتاتى-
أجفلت عندما اخترق ذلك الصوت الأجش أذنى ! ، نظرت فى فزع لأجد تلك السيدة العجوز جالسة على جانب الطريق ترمقنى فى حزن لا يخلو من عتاب لا أعرف سببه ! ، تلك الغجرية كانت تأتى لوالدتى كل فترة تخبرها بشيئا أبله لتأخذ ما يكفيها حتى تعرف شيئا آخر أعته وتأتى لوالدتى لتعيد الكرة
ولكن منذ وفاة والدتى تبدد وجودها وعادت تظهر لى كثيرا الأيام الماضية لتحذرنى من أحدهم ، تحديدا فى اليوم الذى قررت فيه عرض الزواج على -نبيل- ! ،

أليس غريبا ؟! ، ولكنى أدرك ان كل هذا سخف ، فلقد ذهبت والدتى وهى الآن تبحث عن منتج جديد يمد ألاعيبها وحياتها بما يكفيها
--انه يطمس نظراتك ، يجعلك كفيفة القلب والعقل والنظر ، لا تدلفى يا آية الى ذلك الاجتماع ، ورحمة والدتك لا تدلفى هناك-
لا أنكر أن كلماتها أثارت رعبى لوهلة ، تلك القشعريرة المجهولة التى تنذرك بشيئا ما ، ولكن غرورى كان أقوى من خوفى ، وعشقى لم يخلق ما هو أقوى منه حتى الآن..
--سأنتظرك فى الزقاق الخلفى-
رميت لها ابتسامة ساخرة جيدة الصنع ودلفت الى ذلك الأجتماع..
فاليوم مختلف بكل تأكيد !!

* * *

تجاوزت مدخل القاعة واقتحمت الاجتماع بانوثة ، كان -نبيل- يقف امام الجميع ممسكا بمكبر صوت....كان ينظر لى واللمعة تتوهج فى عينيه ، توهج من كان يبحث عن شىء ووجده ، رأيت تلك النظرة تداعبنى فتبخترت وسط الحاضرين وألقيت له ابتسامة أعلم جيدا انها ستفعل الكثير بهرموناته..
كدت أن أجلس بالقرب منه لولا أنه ألصق فمه فى مكبر الصوت وجلجل باسمى وسط الحاضرين :
--آيـــة ، أرجو أن تأتى لتقفى بجانبى ، فهذا الاجتماع على شرفك-
قاومت رقصة الابتسامة على ثغرى وبخطوات مرتجفة توجهت ناحيته مصطنعة الثقة ، وقفت بجانبه أنظر الى الجميع فى خجل وألقى التحيات والابتسامات ، اقترب -نبيل- منى قليلا لينثر رائحته داخل خلايا انفى ، استنشقتها فى تلذذ قبل أن يهمس لى فى جدية :
--ليس عندى مانع أن تلقى كلمة ما على الحضور-
قبضت على مكبر الصوت فورا كطفل أبله ، ووجدت أن الخجل قد تلاشى بأثاره وما يحمله من احمرار وجنتان وانحشار كلمات وكل هذه الظواهر المقيتة..
تنحنحت وألقيت التحية الواجبة....ثم :
--أنا آيــة ، أربعة وعشرون عاما ، درست فى كلية العلوم...ومن واقع دراستى

أريد أن أخبركم بشىء..
ان الحب أمــر كيـــمــيائى بحت !
منذ لحظاته الأولى وهو يعبث فى هرموناتك وكيمياء جسدك باستاذية ، فانت لا تنجذب لـمن تشاء ولا تقع فى حب من تطمح فى الوقوع فى حبه ، فحياتك ليست مرفهة هكذا ، الكيمياء هى المتحكمة والمتحدث الرسمى فى هذا الأمر المعقد
يقولون أن مركبات التوافق النسيجى هى الناطقة بالحكم الأول...تجعلك تنجذب الى هذا وتمقت ذاك ! ، الأمر متوقف على مدى تباين تلك المركبات من شخص لآخر...وكلما ازداد التباين ازداد الانجذاب..
لهذا تجد أحدهم يقول لا توجد كيمياء بينى وبين فلان !
ثم يأتى دور هرمون النورادرينالين..
هرمون محرج..هو من يسبب تلك الحالة من الارتباك والخجل والارتعاش وهذا الاحمرار الذى يجتاح وجهك ببجاحة ! ، هذا الهرمون هو دائما من يفضح أمرك عندما ترى من تحبه
وعندما يغيب محبوبك عنك ستشعر بعدم الارتياح وأن هنالك ما ينقصك ويعطل عملية تحول شبح الابتسامة على شفاهك الى ابتسامة كاملة واثقة ، والعكس صحيح.....هذا بسبب هرمون السعادة....الدوبامين..
وعندما تشتم رائحته فيهدر قلبك وينشر الصخب بين ضلوعك....هذا بسبب الفيورونات..
أما الحالة العامة عندما تكون بجانبه ، هذا المزيج من الثقة والهدوء والراحة ، تشعر أنك تقبض على الكوكب بكلتا يديك وأن ضوء القمر فى صالة منزلك ، تكون على استعداد أن تسخر انفاسك لتدفئته..
هذا بسبب...الاوكسيتوسين.....هرمــون الحب كما يقولون..
أعتذر عن هذا الشرح التفصيلى ، أعلم أنى هكذا أسفه من شعورك وأخبرك أنه مجرد هرمونات تلهو داخل جسدك ، لا تمتعض...فالشىء الذى بامكانه تسخير كل تلك الأحداث الدرامية فى جسدك ، يستحق أن تهلك لأجله وتنقاد خلف توجيهاته

لماذا كل تلك المقدمة ؟ ، لأن هذا سيكون منهجنا ، نحن النساء لا نريد أن نسيطر على العالم ونمحى الرجال من المناصب ومراكز التحكم ، نحن فقط نريد المشاركة والعدل ، وهذا لن يحدث بدمدمة الشعارات والصراخ والعدوانية ، بل سيحدث بالحب....بالمودة...بالرحمة ، الحب عدل....الحب رحمة....الحب مساواة....الحب هو الحياة -

ما ان انتهيت حتى وجدت سيمفونيات التصفيق تلحن بأيدى الحاضرين حتى الالتهاب ، وعبارات المدح والانبهار تعالت فى الأجواء ومعها تعالت ابتسامتى على شفتاي ، نظرات -نبيل- كانت تعج بالاعجاب والانبهار.....تلك اللمعة التى فى عينيه تنم عن شيء ما.....بالتأكيد مفاجأة من العيار الثقيل..

اومأ لى أن أقف فى ركن بعيدا عن شاشة العرض ثم ألقى اشارة سريعة الى أحدهم ليشغل شيئا ما على الشاشة

فى اللحظة التالية خفتت الأضواء وانطلقت أشعة ضوء من مكان ما لتلمع الشاشة ويتجمع الضوء عليها

فى تلك اللحظات حدث شيء غريب لم اتوقعه..

اجتمعت الذرات لتبنى وجه احدهم على الشاشة ، وجه أبيض تناثر عليه النمش بخفة وعينان زرقاء وخصلات ذهبية تتدلى الى أسفل الأذنين.....هذه آية....هذه انـــا !!!

ظهرت على الشاشة وانا واقفة فى صالة منزل -نـبـيـل- ، كنت أمسك فى يدى خاتم فضة نقشت عليه حروف لتصنع اسمه ، كنت اتأمل وجهه بكل حذافيره ، كانت أنفاسى تتلاحق ووتخبط فى بعضها ، كانت الحروف تنسكب من فمى بسرعة من شدة ذلك الخجل الذى استحوذ علىّ بوضع اليد !

كنت واقفة أمام -نبيل- وأعرض عليه الزواج ببجاحة ، وهو ينظر لى فى ذهول ولا يدرى ماذا يقول ، تنحنح فى خجل وقال بابتسامة طيبة :

--ساخبرك غداً بقرارى ، وبرغم كل شيء أحترم شجاعتك الغير طبيعية-

ابتسمت أنا فى فرحة بلهاء ، اقتربت منه ببطء وسحبت ذلك المنديل الموضوع فى جيبه بدون داعى، استنشقته بعمق كأنه آخر نفس لى فى الدنـيا ، ودسيته فى جيبى قائلة فى مرح :

--سيبقى معى حتى الغد لأصبر نفسى به-
كنت أسمع همسات الحاضرين وضحكاتهم المكتومة ونظراتهم المتطفلة المستفزة ! ، وما ان انتهى العرض حتى انتهى معه صبر الجميع واندلعت الضحكات بعنف وهستيريا ، حتى سعل البعض واغرورقت عيون البعض
نظرت الى -نبيـل- فى عتاب لأجد ما لم اتوقعه ، كان ينظر لى نظرة اكتظت بالشماتة والفرح والاستحقار ، نظرته كانت تبصق ما حبسه فى صدره اعوام ، عندما قبلت ان ارافق صديقه بينما كان هو يذوب فى عشقى ، ولكن تلك احداث قديمة منذ السنة الأولى فى الجامعة ، وتركت صديقه هذا بعد ثالث خروجة بيننا ، لماذا يفعل بى هكذا ؟!
نظرته تقول انه يريد كسرى ، يريد أن يهشم كبريائى ! ، نعم....تلك اللمعة فى عينيه كانت تنم عن شىء لم أعرفه سوى الآن !
قال -نبيل- عبر مكبر الصوت والابتسامة لا تتخلى عن ثغره ونظراته :
--انتى شجاعة يا آيــة ، حقا انتى أشجع فتاة قابلتها فى حياتى ، وتستحقى وبجدارة أن تتوجى بأشجع فتاة فى العالم ، ولكن.....آســف يا حلوة...أرفض عرض زواجك ومع كل آســف -
تلك هى رصاصة الرحمة على أعصابى ، كانت معقدة لا أستطيع التحرك بسببها والآن أصبحت مرنة بطريقة غريبة...لدرجة انى هرولت خارج هذا المكان والنظرات والضحكات تلاحقنى فى عناد
الغجرية قالت لى هذا ! ، الغجرية حذرتنى ! ، الغجرية كانت محل ثقة والدتى ، فلماذا لم أصدقها وأحافظ على ما تبقى من شظايا كرامتى ، الغجرية قالت أنها تنتظرنى فى الزقاق الخلفى....الغجرية تمتلك الحل بالتأكيد ، تمتلك الانتقام !
عدوت بكل ما أحمله من غل ، كانت خلايا عقلى ثملة تبعثر الأفكار هنا وهناك ، كنت ألتفت كالمجانين فى كل صوب أبحث عن تلك الغجرية والعبرات تكسو مقلتاى لتجعل الرؤية ضبابية مرهقة
--انــا هــنا-
قالتها ببرود عجيب لألتفت ناحية المصدر ، كانت قابعة فى جانب مظلم كالقطط المذعورة ، برغم ان لفظة مذعورة لا تليق مع وجهها الجامد ونظراتها التى دائما

تحمل معنى ما لا أفهمه
هرعت ناحيتها وقُلت فى لهفة :
--كيف عرفتى ما سيحدث ؟!-
قالت ببرود :
-- أنا اعرف ما حدث ، وليس ما سيحدث-
-- أريد الانتقام ، أريد أن أنهش قلبه وأشعل اعصابه ، أريده معذبا دائما ، يخلو من الألم هنا ليتصاعد الألم هناك ، أريده مـيـــــت حـــــــى-
اومأت برأسها أن -حسنا- بكل برود ، سفهت من كلماتى وكأنى أطلب الشاى سكر برة !!
--أريد شيئا من متعلقاته-
قالتها فى برود معتاد
أفكارى كانت تعمل بسرعة مذهلة فى تلك اللحظات ، فوجدت نفسى أمد يدى داخل حقيبتى لأخرج لها المنديل .
ابتسمت فى رضـا وقالت :
--اتركينى دقائق لأعمل ، وبعد لحظات عندما يخرج ، سيصلى عذاب أبدى لم ير مثله ، سيعيش ما تتمنى أن يعيشه-

* * *

كانت خطواته تصدح فى الزقاق ، فالوقت قد تأخر ودنى من منتصف الليل كثيرا كان يخطو فى تؤدة وثقة ، فلقد نال منى الحقير وباحتراف ،كان وقح ووغد ولكن بأدب واستاذية !
خرجت له من مخبأ الغجرية لأصبح خلفه دون ان يشعر بى ، فكان مندمج فى احتضان النسيم البارد الذى غمر المكان
كنت ممسكة بالعصا التى أعطتنى اياها الغجرية ، عصا حديدية مزخرفة بنقوش تشك فى معناها ! ، نظرت الى الغجرية فى تردد ثم بدون شعور وضعت العصا على الأرض بحرص ، سحبت جرعة اكسجين ليمتلأ به صدرى بكمية لا بأس بها ثم ناديت على ذلك الحقير المتبختر
التفت لى فى ذهول تحول الى سخرية بعد لحظات من رؤيته وجهى الباكى ،

جثمت لحظات الصمت على صدرى حتى تمكنت من سحب الكمات من حلقى :
--لماذا فعلت بى هذا يا حقير ؟!-
نبرتى لم تحمل غضب بقدر ما حملت عتاب وحزن وتذبذبات بكاء ، لم يتأثر ولم يهتز ، لم يراجع نفسه حتى...لم يفكر فى الرد مرتين :
--لم أفعل بكِ شيئا ، كل انسان مسئول عن تصرفاته -
رغما عنى بصقت بعنف على الأرض وهتفت فى وجهه :
-- انت وقح وواطى-
--وانتى امرأة مكسورة ، وانا أقدر حالتك جيدا-
انتهى من جملته ليلتفت ويكمل طريقه وهو يدندن أغنية ل-عبد الوهاب-
التقطت العصا الراقدة فى الأسفل وبسرعة خيالية اندفعت اتجاهه فى حقد وكره ، أقدر أنه شعر باندفاعى الهستيرى ، فوجدته أوقف غناؤه وسيره ، وشرع أن يلتفت فى فزع ناحيتى ، ولكنى لم أعطه الفرصة الأخيرة
هويت على رأسه بقوة بالغة ، ارتطمت العصا برأسه حتى شعرت أن جمجمته تهشمت ، لم يجد الوقت الكافى لكى يتألم ويغمض عينيه ويهوى اولا على ركبتيه ثم باقى جسده ، الضربة كاسحة دمدمت كالرعد فى رأسه وتوازنه
هوى فى لحظة واحدة بجسده كله على الأرض
ومن العدم ظهرت الغجرية أمامى تنظر له فى كره واستحقار ، قالت لى بنبرة آمرة :
--خذيه الى أقرب مشفى ، انه الآن فى رحلته الأولى-
--وماذا يحدث له ؟!-
نظرت لى وقالت فى تلذذ :
--الـحـب ينـهش قلبه-

* * *

- مـــنـــى لـــيـــــزا -

كان البرد شديد..يهشم الضلوع..ويقشعر له البدن..
الرعد مدمدم،،والبرق صاعق..عابر لكل الحدود ، والأمطار تهطل بوفرة ، العواصف غاضبة ترتطم بالنوافذ والأجساد والأشجار فترجفها..
فى هذه الليلة المرعبة قررت -منى- العودة الى القاهرة
قررت العودة برغم الرعد الصارخ...والبرق المرجف..والأمطار الغزيرة... والعواصف العنيفة
حين شرعت -منى- فى غلق سترتها الصوفية السوداء ، التى تحمل تحتها كم من الملابس لتبذل قصارى جهدها فى الحفاظ على جسد العروس قبل زفافها بأيام ، كانت -علياء- قد انتهت وتأهبت لمواجهة هذا الجو ، دائما -علياء- تنتهى قبلها جلست -منى- لتنهى القدح الساخن الموضوع على المنضدة ، بينما -علياء- رمقتها فى غضب قبل أن تزفر فى حنق
لا تستطيع تفرقتهم عن بعضهم مـهما أعطيت عيونك تركيز وافر ، فالشبه بينهم أكبر من أن تفرقه عينك السطحية
نفس الأنف المدبب..والعيون العسليتان الساحرتان...والفم الصغير...والجسد المبهر الطويل الحامل لجمجمة ليست كبيرة يعلوها هذا الحرير المنسدل على الأكتاف
كان الشعر هو الفرق الوحيد بينهم ، فشعر -منى-بني....وشعر -علياء- أسود قاتم ، ولكنهم خلال رحلتهم القصيرة الى الاسكندرية قرروا محو هذا الفارق من باب المزاح لا أكثر...فصبغت -علياء- شعرها الأسود ليحول الى بنى لا يفرق شىء عن شعر أختها
كانت رحلة قصيرة قبل زفاف -منى- بأيام ، قرروا فيها قضاء آخر أيام العزوبية ل-منى- فى مكان يبقيا فيه وحيدتين ...لم يجدوا أجمل من الاسكندرية فى هذا

الشتاء القارس ، حيث داعبهما النسيم البارد وهدأ من توترهما قبل الزفاف
انتهت -منى- من مشروبها وأخذت نفس تأهبا للنهوض ، حينها نهضت -علياء- بخفة واتجهت الى باب الغرفة ، وراءها -منى- تؤمن على حاجيتها وشكلها وشعرها...لابد أن تبدو مثيرة وهى تودع الفندق حتى ينتحر العاملين به حزنا على فراقها
صرخ الرعد فارتجفت الأبدان..
كان العامل ذو الجسد النحيل يحمل الحقائب متجها الى السيارة الرابضة على بعد خطوات من المدخل ، كان يتأمل السماء والبرق يشرخها ويظهر فى الأفق متحديا..ويليه صوت الرعد ليكمل العمل ، هذا المشهد جعله يسرع خطاه ناحية السيارة ويدسهم بسرعة فى الحقيبة الخلفية ، لم ينتظر -بقشيش- ! هرول مسرعا يعبر المدخل ويتوارى داخل الفندق المطل على الجحيم القائم بالخارج
أثار ضحكاتهم الأنثوية التى دوت لتغلب على صوت الرعد الهادر ، دسّت -منى- نفسها فى السيارة لتصبح أمام عجلة القيادة..وأعقب دخولها -علياء- التى اصطكت أسنانها من شدة هذا البرد
أولجت -منى- المفتاح وأدارت السيارة وهى تنطق البسملة ، دعست البنزين لتشق السيارة الطريق متحدية الجو القاتل..

* * *

بسرعة (١٢٠) شقت السيارة الهواء
كان الطريق خالى...يمزق صمته الرعد...ويبدد ظلامه البرق....وترويه الأمطار..
أشعلت -علياء- لفافة تبغ تقتل بها الوقت..ولتمد دماؤها بنيكوتين افتقدته ، نظرت لها -منى- فى حنق ثم أعادت نظرها على الطريق بسرعة قبل ان تقول..
--ألن تكفى عن هذه العادة السيئة-
--ليس كل شىء حرام قبيح ، دمائى فى حاجة لها وأنا لم أتعود على منع العطاء حتى وان كان غير مرغوب به..فهو عطاء-
دائما ردودها مزيج من المزاح والفلسفة والهذيان !
--مصيرك سيكون زوج يحرمك منها-
--لست مغفلة مثلك لأقدم على خطوة كهذه ! ، لا أريد أن تتكرس حياتى فى

الفراش وتربية الأولاد وتحضير الطعام ، لا أريد لحياتى أن تتسرب من أسفلى !-
--الله يسامحك-
قالتها -منى- مصطنعة الضيق لتبتسم -علياء- قبل أن تدسّ شفتيها فى خديها لتطبع لها قبلة بعد قولها:
--انتى حالة استثنائية يا جميلتى-
ابتسمت -منى- فأكملت -علياء-:
-- مهما بحثت فى ثنايا عالم الذكور لن أجد رجل مثل يحيى-
--فعلا..عيناه التى تحمل طفلا...وقلبه الذى يعج بحنان غلفنى به...وطيبته التى لم أرى لها مثيل-
--ثمل أو مازح لعين-
قالتها فجأة -علياء- بنبرة حادة ! فعقدت -منى حاجبيها :
--ماذا ؟!-
--هذا السائق الذى تظهر سيارته فى الأفق ! ، تترنح سيارته وكأنه دسّ فيها الكحول وليس البنزين ! -
نظرت -منى- لتدركه فقالت بنبرة مازحة:
--وأنا أيضا أحب المزاح-
بعد أن قالتها دعست البنزين ليهرول مؤشر السرعة الى (١٦٠) ، حدقت -علياء- فصرخت بها لتهدء السرعة..ولكنها كانت تجيبها بضحكات متعالية
طمست أذن -منى- بصوت ضحكاتها ، كما ان الادرينالين يندفع دفعا فى عروقها.
.وهى تعشق هذا !
فى هذه اللحظات جال ببال -علياء- موقف لعين لا تحب تذكره..
تذكر جيدا هذا الكلب الشرس ! ، كلب جارهم -ريكس- -ريكس اسم الكلب لا جارهم- كانت مخالبه تشق الطريق خارج فمه ، وأظافره تبرز من لحمه كسكاكين حادة ، وعيناه الحمراء التى تشى بشراسة فاتكة ، ولهاثه المدوى يرعبك أكثر من منظره
كانوا أطفال الحى يهابونه ، كان الزائر الثقيل لكوابيسهم ، وسبب هرولة مثاناتهم فى ضخ ما بها فجأة ، وكان كقطعة لادن تمضغ فى أفواه الأهالى اذا

أرادوا اخافة ابنائهم -اذا فعلت هذا سأربطك وأضعك أمام ريكس-
واحدة فقط من الأطفال التى قررت المغامرة والوقوف أمامه...ذات الشعر البنى..-منى- ، ريكس كانت مقيدة رقبته بسلسلة مربوطة حول عمود من الحديد بجانب منزل صاحبه ، السلسلة تسمح له بعدة أمتار فقط من العداء ، -منى- كانت مفتقدة لادرينالين يضخ فى دماؤها..وضحك يدوى...وتركيز الأقاويل والحكايات عليها وعلى شجاعتها وبسالتها
لذا...ذهبت فى احدى الليالى بينما -ريكس- كان نائما.....والأطفال من بعيد متجمعين ينظرون فى ترقب ، كان قلبها كاد أن يثب من فمها....وهى تعشق هذا ! ، اقتربت أكثر حتى أصبحت أمامه ، صدره كان يعلى ويهبط بشكل مخيف ، تأملته للحظة قبل أن تركل صدره بقدمها....ليستيقظ هو من نومه وصوت نباحه يهدر ليصرخ الأطفال فى رعب ومنهم من فر هاربا الى منزله ، هرع الكلب خلف - منى- التى ظلت تركض ناحية باب منزلها...تصرخ حتى انفلقت حنجرتها
-علياء- كانت واقفة أمام الباب تراقب هذا والذعر كاد أن يؤدى بها ، هرولت -علياء- تفتح الباب ودلفت الى داخل البيت...وقفت خلف الباب منتظرة قدوم أختها فى سلام
كانت -منى- تركض بقوة وتصرخ بقوة...بينما الكلب وراءها ينظر لها بوعيد..
اقترب الكلب أكثر من -منى- التى تعدو أمامه...هنا فتح الأطفال أفواههم منتظرين اللحظة الحاسمة....اللحظة التى يقضم فيها الكلب مؤخرتها ويلوك جسدها الصغير فى فمه العملاق
فتح الكلب فمه ليحقق رؤية الأطفال...واقترب أكثر من مؤخرتها وزمجرته ترجف قلبها ، -علياء- نظرت الى هذا المشهد وكاد قلبها أن يسكن عن الحركة ليراقب هو الآخر ، هرس الكلب بفمه الهــواء..
فالسلسلة سحبته الى الخلف....لتتقدم -منى- عليه بأمتار كافية لتصل الى منزلها فى سلام ، ظل الكلب يحاول التخلص من السلسلة ليفترسها انتقاما ، ولكنها ألقت بجسدها داخل منزلها لتدفع -علياء- الباب تغلقه وتسقط بجانب أختها..

ظلت - علياء - تنظر بلوم وبعيون تكسوها الدموع الى -منى- الساقطة...والتى غرقت فى ضحكاتها من فرط متعتها !
جال فى بال -علياء- كل هذا ، تذكرت الموقف بكل حذافيره...كل ثانية مرت.. وكل حرف نطق..وكل تعبير أبداه كل وجه نظرت له
أفاقت من غيبوبتها القصيرة فوجدت نفسها مازالت تنظر الى -منى- فى ذعر ! ، اتجهت بسرعة بنظرها ناحية الطريق لتجد السائق المجنون-أو الثمل- مازال يتراقص بسيارته على الطريق الزلق !
الموقف يدمر الأعصاب حقـــا !
البرق ينير للغيوم الكثيفة التى تكدست بها السماء ، والرعد يصرخ غاضبا فى وجهها فتهرول تهطل أمطارها على الطريق....فتنسكب بغزارة وتجعله أكثر انزلاقا
لم يكن هذا فحسب ما يدمر الأعصاب !
فالسائق المعتوه من الواضح أنه ادرك مزاح -منى- فبادلها هو الآخر نفس الشعور ، تنزلق سيارتهما يمينا...فينزلق هو يمينا ، تنزلق سيارتهما يسارا...فينزلق بدوره أيضا !
السيارتان تتراقصان على سيمفونية الرعد المدوى
والأمطار تكسو الطريق لتساعدهم على الانزلاق أكثر
وضياء البرق يأتى لوهلة لينير لهم آخر مشاهد الحياة
-منى- تضحك ومازالت تأخذ الموقف على محمل المزاح
-علياء- برغم البرد الذى يطمس الجو...فهى غارقة فى العرق الذى كساها بالكامل وبلل ملابسها ،،
السيارة اقتربت أكثر..
-علياء- صرخت فزعا
السيارة اقتربت أكثر واكثر ومازالت بنفس سرعتها الساحقة
تحولت ضحكات -منى- الى صرخات حقيقية انغمس الرعد فى صوتها
السيارة غيرت مسارها فى آخر لحظة
-علياء ومنى- بداخل سيارتهم التى حلقت وشقت الهواء البارد...لتذكرها

الجاذبية بقوانين الطبيعة فتسحبها الى الأسفل وترتطم بالأرض بقوة ، لتظل تتراقص كتلة الحديد حتى تستقر بجانب شجرة أوقفتها....والدخان ينبعث منها....والأرواح أيضا..

* * *

مجرد النظر فقط على هذا البيت..يرسل أشعة من الدفء تجتاح داخلك..
كانت السيدة العجوز جالسة على المقعد وجانبها قدح به مشروب ما يفوح منه البخار الساخن، شعرها أشيب وغزير يغطى كتفيها...عيونها عسلية يحوطهما تجمع عظيم من التجاعيد التى تكدست فى وجهها...يبرز من وجهها الحكمة التى تتذوقها فى أوجه وتصرفات العجائز ، ابتسامتها تكشف عن صفين ناصعى البياض يزدان بها هذا الفم الصغير
جلس أمامها هذا الشاب اللطيف ذو الملامح الهادية...وعينان يحملان طفلا !!
--هل اتصلت بمنى يا يحيى ؟-
قالتها العجوز بعد رشفة بطيئة من القدح الساخن
--غــير متاح-
قالها بتوتر برز من نبرته قبل وجهه
كان القلق يعتصر روحه ، والشكوك تجتاحه بدون رحمة حتى امتلأ بها صدره المرتجف
لم يفترقا يوما واحد منذ خطوبتهما التى استمرت سنتين ، والآن وقبل الزفاف ببضعة أيام تسافر الى اسكندرية دون اخباره وتمكث بها أسبـــوع ! ، وفوق كل هذا قررت العودة فى هذه الليلة عنيفة الجو...وهاتفها أصبح غير متاح !
برغم تصرفاتها المجنونة هو يهيم بها حبا
منذ أن قابلها صدفة عندما انتقل الى السكن أمامهم وهو متعلق بحبائلها الناعمة ، لم يعرف سر انجذابه لها ، بالتأكيد ليس جمالها..فتوأمها -علياء- تملك نفس الوجه المبهر ! ، لم يعرف..ولكنه على يقين من أن هناك شىء عميق بداخل روحها..يجذب روحه اليها
كانت العجوز قد استبد بها القلق ، تعرف أن عضلة قلبها ستسكن اذا حدث سوء لبناتها ، تعرف أن ليس هناك حياة بعد مفارقتهم...تعرف أنها بلا معنى

وبلا قيمة دوناهما...تعرف هذا..وتدعو الله أن يكونا بخير..والا ستكون نهاية حياتها الطويلة..
مزق الصمت والأعصاب دخول والد البنات المنزل....كان وجهه يحمل كثير من علامات الخوف والحزن والقلق ! ، أطرق رأسه وهو ينظر لهما حتى هشم أعصابهم ، لم يفتح فمه حتى صرخت به زوجته :
-- ماذا حدث لبنااااتى ؟ انطق-
نطق بالفعل..خرجت منه الحروف لتنغرز داخل قلبها العجوز الهش..
--انقلبت بهما السيارة على الطريق..وهما فى المستشفى الآن-
سقطت الأقداح..وتوقفت القلوب..

* * *

هذا الرواق الطويل الأبيض التى تحمل جوانبه أزهار كثيرة ومقاعد متراصة للمنتظرين..
سلكته العائلة التى تعج بالبكاء والنحيب والكآبة والأنوف الحمراء..منها بفعل البرد..ومنها بفعل البكاء والحزن..
سلكوا الرواق بلهفة متجهين ناحية الغرفة التى ترقد بها الفتاة ، لا يعرفوا من هى الفتاة....الفتاتين يشبها بعضهم البعض كثيرا..ولا توجد أوراق شخصية تثبت من التى بقت على قيد الحياة
نعم...فتاتين توأم أثناء عودتهم من السفر انقلبت بهما السيارة ..بسبب الطريق الزلق والرجفة التى يصنعها الجو...والسرعة التى سلكا بها الطريق ، واحدة منهم قد فارقت الحياة..والأخرى ترقد بالداخل...والصافع أنهم لم يعرفوا من التى ماتت ومن التى تشبثت بروحها ومنعتها من الخروج
هذا حديث ممرضتين ثرثارتين يتكلما عن الحادث الذى ترك لهما جثة وجريح
وصلت العائلة الى الغرفة ليجدوا كالعادة الطبيب يخرج منها ويلقى الجملة بدون اهتمام..وبرتابة :
--البقاء لله-
من التى ماتت ؟ومن التى تتنفس بالداخل..؟!
تطايرت هذه الأسئلة بصوت خافت بين أفراد العائلة حفاظا على شعور السيدة

العجوز الجالسة على المقعد تتأمل الفراغ ، برز من بين التجمع -يحيى- وأعصابه قد تلفت تماما..اتجه ناحية الدكتور يسأله :
--هل يمكننى الدخول اليها ؟-
--الى من فيهما ؟!-
لطمه السؤال ! ، لا يعرف هل يختار الدخول الى الميتة..أم التى مازالت على قيد الحياة ! ، لم يفكر كثيرا..فالمنطق يقول له أنه فى أسوأ الأحوال سيرى -علياء- حية..ولن يرى حبيبته جثة
--الحية-

* * *

انغرس الحديد الساخن وتلاحم مع أجسادهن الضعيفة..
كست الدماء وجهها...كسا الألم وجهها....وكذا عدم التصديق..عدم الفهم..
القدر أسرع من أن تفهمه...هى تعلم جيدا أن موازين الحياة تنقلب دائما وتجعل عاليها أسفلها، ولكنها مندهشة بالفعل..!
ما الذى جاء بها الى هذه السيارة التى هرسها حادث ما ، ومن هذه التى ترقد بجانبها وقد انغرز الحديد فى جسدها فزهق روحه ، من ترقد بجانبها قد التحم بها الحديد حتى أصبحوا شىء واحد...وقد تطاير نصف رأسها العلوى أيضا لتتطلع عليها الجمجمة فى غباء !
المنظر أبشع من أن يتحمله بشر.!
هى تعلم أنها تعرف هذه الفتاة جيدا ، فهذا شىء مفروغ منه..تجمعهم سيارة واحدة وحادث واحد..أكيد هناك سابق معرفة ، هل تكون صديقتها ؟ جارتها ؟ شقيقتها ؟!
ربـــى ! .....انها بالتأكيد آكلها العذاب قبل موتـــها المريـــر...
تمزقت حبائل تفكيرها عندما خطا هذا الرجل المريب ناحية السيارة المفتوك بها ، كان يحنى ظهره ليلقى بعيونه داخل السيارة ، كـــان طويـــل...هذا ما تكرم به عليها نظرها وهذا الظلام الدامس بالخارج بأن تعرفه
لسان البرق صعق السماء..
هنا تكرمت عليها الطبيعة لوهلة أن تريها وجه هذا الرجل المتفاجىء...

المرهوب..المذعــور..
كان طويل ونحيل ، يقسم جسده عضلات يعتنى بها جيدا ، أكتافه عريضة تحمل رقبة قصيرة تعلوها هذه الرأس ذات الشعر الخفيف..الأشقر ، يرتدى سروالا أسود أسفله حذاء أسود برقبة ، لم تعلم كيف تمكن عقلها بسرد كل هذه المعلومات فى بعض ثوان....شكت ! ولكن لسان البرق اندلع مرة أخرى
فأخبرها أنها على حق..
كان يرمى نظرات استبد بها الهلع...
لمحت هذه السيارة التى تحطم جزءها الأمامى ، اذن...
اذن هذا الوغد هو من تسبب فى الحادث..هو من تسبب فى قتل هذه المسكينة.
....بل وتعذيبها قبل أن تصعد روحها الى العنان
من هذه الفتاة البريئة ؟
وجهها البرىء تظهر عليه علامات العذاب الذى ذاقته قبل موتها ، وجهها برىء.
..وجهها جميــل...وجهها طفولى....وجهها...وجهـــهـــا !!
هذا الوجه قد لمحته على سطح الماء المتذبذب الذى صنعته الأمطــار الهاطلة ، هذا الوجه وجهها ، هذا الشبه عظيم جـــدا !
اذن انت أيها الوغد الواقف تنظر فى غباء....انت قتلت أخــتى !! ، فتكت بحياة توأمــى !!
كان الألم رهــيب فعلا..
وجهها تزاحمت فيه الجروح ، ويداها ملقاة خارج السيارة....ملقاة على هذا الطين ، وكف يدها الملقاة للخارج به ألم كبير جدا ، نظرت فأدركت ما السبب.
....السبب شريحة الزجاج المغمودة فى منتصف كفها وقد ابتلت بالدمــاء...
دماؤها ، وسط كل هذا الألم لم يستفز أعصابها الا هذه الشريحة المغروزة بكفها ، ترى طفيف انعكاس لوجهها من خلال هذه الشريحــة
هنــاك شىء آخر لم تلحظه منذ أن فاقت..
هنــاك شىء نــاقص ، قدمها اليمنى بترها الحادث اللعيــن !
وجهت للرجل نظرة.....نظرة تكدست فيها كراهية هائلة....نظرة جاءت من الجحيم نفسه..

توهج لسان البرق مرة أخرى...
فاستطاع أن يتأكد أنها مازالت على قيد الحياة ، واستطاع أيضا أن يدرك هذه النظرة المقيتة ! ، واستطاع أن يرى أنها تتحرك لخارج السيارة !
نعم....هو لا يهذى !
انها بالفعل تتحرك....تزحف على بطنها.....فقد تخلت عنها قدمها ، تزحف صانعة خط من الدماء يرسم ورائها ، انـــها تتحرك ناحيــته !!
لم تكتفى بأن تتحرك ناحيته وتنظر له هذه النظرة القاتلة ، بل انتشلت هذه الشريحة الدامية ، انتشلتها من كفها بكل قسوة ولم تأبى للألم الذى أكيد أصاب يدها وأعصابها ، لماذا فعلت هكذا بالفعل ؟!
أجابته هى على الفور..
ظلت تزحف ناحيته شاخصة العينين شاهرة هذه الزجاجة..بالتأكيد ستقتلك يا غبــى !
بالرغم من أنه يعرف أنهـا فتاة فقدت للتو ساقهـا وكم من الدماء...تتحرك بصعوبة وبضعف ولا تقوى على قتل ذبابة...وان ذهب الآن ودعس يدها الممسكة بالشريحة ووجه لوجهها لكمة قوية..ستلفظ حينها نفسها الأخير بلا شك
ولكن البرق المتوهج الذى انعكس على وجهها الغاضب..وزحفها المرعب ومنظر قدمها المبتورة...كل هذا أهداها كاريزما تجعل ابن شداد يثب من مكانه ليفر فى ســلام
وهذا ما فعله بضمــير
هرع يتجه الى سيارته التى تحطم منها جزءها الأمامى....وشق بها الهواء متجها الى حيث لا تعلم هى
هــى....التى سقطت دامية....مبتورة قدمها....باكية.....فاقدة...وعيها... وذاكرتها...التى نهبها الحادث

* * *

من مكان مــا انبعثت هذه الموسيقى التى أخذت تملؤ المكان تدريجيا..
هناك شيئين مبهمين فى الجملة السابقة.....أعرفهم...

المكـــان ! ، ما هو الـــمـــكان ؟!
الموسيقى ! ، ما هى الموسيقى ؟!
نبدأ باجابة السؤال الأول..
المكان.....يبدو كحديقة عامة..ولكنها خالية ، أرضيتها خضراء بالطبع....والأشجار موزعة فيها بشكل جميل ، وفى منتصفها تقبع هذه الارجوحة الجميلة ، جميلة لأجل هذه الذكريات التى تنشرها داخلك عند رؤيتها....ولكنها فى الحقيقة قديمة اصطكت مواصلها وصدأ حديدها وسقط دهانها الأخضر
الحديقة واسعة....خالية كما قلنا ، والشمس تظهر فى الأفق وهى تحتضر مرسلة هذه الأشعة البرتقالية الكئيبة ، الغـــروب جميل....ولكنه قاسى وكئيب..
هذه الاجابة الأولى....نموذجية بالطبع...
نأتى الى السؤال الثانى...
ما هى الموسيقى ؟!
فى الحقيقة لا أعرفـهـــا !
انها عذبة لها طابع الاوبرا...من الطراز القديم الذى يسحبك دائما الى عالم من الطفولـــة ، عندما تمتلؤ اذنك بها تشعر أنك فى روضة أطفال فى أوروبـــا ! أو روضة أطفال خاصـــة..ثرية
كانت تقف هى فى هذه الحديقة تنظر حولها بتوتر وكأنها تبحث عن شىء مـــا ! ، طفلة فى الخامسة من عمرها ترتدى فستانا أبيض ، شعرها طويل معقوص للخلف لينتهى بذيل حصان تصل حدوده الى ظهرها ، لم تعرف عن ماذا تبحث..
ولكنها تجوب بعينيها كل ركن منتظرة شىء مـــا.....لم يـحدث شىء !
هذا ما أدركته فانتهى بها الأمر تتجه ناحية الارجوحة الرابضة فى منتصف الحديقة ، جلست على مقعدها بصعوبة وأخذت تتحرك للأمام والى الخلف لتحث الارجوحة على التأرجح
بعد لحظات أصبح تتأرجح بقوة لدرجة أفقدتها السيطرة عليها ، ولكنها لم تآبى.
..كما تعلم الأطفال تنخرط فى لحظة المتعة فقط...لا يتطلع عقلهم على الأبعد أو الممكن حدوثه...فقط تستمتع..
هدرت ضحكاتها وانتشرت وملأت الـحديقة ، كانت تغمض عينيها تاركة نفسها

للنسيم يلفحها فى حــب.....والموسيقى التى لسبب ما تحبها وتنفث داخلها راحة هائلة.. تملؤ أذنيها...
هذا الغروب غريب !
لم تَمُتْ الشمس حتى الآن ! ، ظلت مكانها على نفس الوضع الكئيب تراقب ما يحدث فى برود...أو كأنها منتظرة حدوث شيء ما
كانت الفتاة مغمضة العينين ، ولكن هذا الشيء الغامض اجتاح داخلها فجعلها لسبب ما تفتح اعينها وتنظر حولها فى قلق ، ولكنها كانت محقة فى قلقها.... بسبب هذا المشهد الذى اندلع فجأة أمامها...
من مكان ما برزت هذه الفتاة....التى.....التى تشبهها كثيرا !
فجأة رآتها ظهرت....كانت مذعورة...لاهثة ، لم تدرك السبب الا بعد أن رآت هذا الوحش يطاردها ، بصراحة ليس وحش أنا أبالغ...انه فقط كلب ضخم شرس... منظره يوحى لك بوحش مفترس
كان يركض ورائها وهو يطلق زمجرة تسكن له القلوب احتراما
كانت هى لاهثة...واهنة ، تبكى بحرقة وقد بللت دموعها ثوبها الأبيض ، استحوذ الهلع على ملامح وجهها البريئة...والوحش-أقصد الكلب- لم يبدى اهتماما بدموعها الهاطلة ، فقط يزمجر وقد اقترب منها كثيرا ليقضم مؤخرتها ويفتك بها..
حاولت أن تتدلى من هذه الارجوحة ولكن دون جدوى ، تآبى أن تقف للحظة واحدة ، لم تكتفى اللعينة بهذا...بل ازدادت سرعتها فى عِند حتى قاربت على (١٨٠) درجة ، أمّا الغروب الوغد ! قد اكتمل تماما بمجرد رؤيته لهذا الكلب... اكتمل ليحل الليل ويطبق على الأنفاس
الفتاة مازالت تحاول الهروب من الكلب الشرس...ولكن الى متى ! ، فهرس بأنيابه البارزة على قدمها الضعيفة فسقطت المسكينة والصرخات تندلع بلا توقف من فمها الصغير
الارجوحة لا تريد الوقوف..
ظل الكلب يسلخ قدمها وينتزع لحمها ويفترسه فى تلذذ ، وهى قد دخلت فى مرحلة استسلام عميقة أودت بقواها التى تبددت

الارجوحة اللعينة تأبى الوقوف...تبــا ! سيقتلها !
قبض بأسنانه الحادة على رأسها...وأخذ يقاوم العظام فى عناد وهو يحاول سلخها تماسكت وحاولت الوقوف فوق مقعد الارجوحة الهستيرية ، نجحت بالفعل فى الوقوف ولكن شىء ما حدث !
فجأة وجدت نفسها تسقط من فوق الارجوحة وقد تعلقت قدمها فى حديدها الذى لا يكف عن التحرك..والصرير
سقطت..
احتضنتها الأرض وتشبثت الارجوحة بقدمها اليمنى....المعلقة هناك !
لم تهتم كثيرا...نظرت بسرعة ناحية الطفلة لتجد أن الوغد أودى بها ! ، كان يقف أمام الجثة التى فقدت نصف رأسها العلوى.. والدماء تنزلق من شدقيه..
..كان مزعورا ينظر فى اندهاش استبد بملامحه ، كان طويل بعض الشىء....برأس صغير ذات شعر قصير...أشقر....يرتدى سروالا أسود أسفله حذاء أسود برقبة ، أدرك أنها سقطت من على الارجوحة فنظر لها فى رعب....قبل أن يثب هاربا خارج الحديقة..
برغم كل هذا....مازالت الموسيقى تدوى..

* * *

كان صدرها يعلو ويهبط فى ايقاع منتظم ، وجهها تتناثر عليه حبات العرق.
..وشعرها استبد به العرق فأصبح كتلة واحدة متلاصقة...تتدلى منه بعض الخصيلات التى التصقت بجبينها المبتل..وشفاهها تتحرك حركة بطيئة منفعلة.
...تصدر غمغمة لا تقوى أذنك على التقاط حرف منهــا
بدأ تثاقل جفونها فى التبدد
فتحت عينيها بالتدريج والنوم يحوطها فجعل الرؤية مستحيلة ، لحظات وبدأت سكرات النوم تزول....الرؤية مشوشة قليلا ولكنها تفى بالغرض ، نهضت وصوت قلبها مسموع....مسحت العرق الكاسى وجهها بضمير واتجهت الى باب الغرفة بعد عنـــاء بسبب النوم الذى يخدر رأسها.....وهذه القدم الصناعية التى تعوق سيرها وتجعله صعبا..مؤلما
وجدت فى الصالة هذا الشاب الخجول الذى أخبرها أنه خطيبها ، وبجانبه هذه

العجوز الوقور تحتسى شىء ساخن يهون على عظامها الضعيفة البرد الذى يملؤ الأرجـاء ، كانوا ينظرون بترقب وكأنهم منتظرين استيقاظهـا ، ألقت تحية واجبة واتجهت الى الحـمام

سلكت هذا الرواق الصغير الحامل لباب الحمام وباب غرفة تجاوره ، دلفت الى الحمام ووقفت أمام الحوض تلتقط بعض الهواء ، سئمت هذا الكابوس الذى يطاردها فى بـرود ، لم يكن مبهم كثيرا بالنسبة لـها ، فهى تستوعب بعض الأشياء فيه

مثلا الفتاة التى تشبهها...هى الفتاة التى كانت فى السيارة وقد حطمها الحادث ، والكلب هو الحادث فى اعتقادها.....وظهر أنه الوغد الذى تسبب فى الحادث الذى أزهق روح أختها وأدى بنصف رأسها العـلوى

الكابوس هو صورة رمزية للحادث الذى مرت به...

الحادث يبدد اختها من الوجود..وهى لا تقوى على فعل شىء ! لا تستطيع مساعدتها....وما أكد ذلك هو بتر قدمها التى طمعت فيها الارجوحة اللعينة... .ولكن لـمـاذا يطاردهـا !! .....هل هناك رسالة من العالم الآخر تتوارى فى أحداثه ؟!

مازال عقلها يعبق بالكابوس وبكل شىء فيه

قررت التخلى عن التفكير للحظات....تنفست الصعداء وصفعت وجهها ببعض المياه لتفيقها.....وتصبح كاملة الوجود فى الواقع

التفتت فى ذعر الى خارج الحمام ! الى الرواق !

شعرت به لوهلة....جذب انتباهها فجأة واختفى الى حيث لا تعلم ، ظل....ظل لشخص ما تحرك بسرعة من أمام باب الحمام متجها ناحية الغرفة المجاورة له. ....من هذا ؟!

خرجت من الحمام ومازال وجهها لم يجف من المياه التى تغطيه ، عرجت بقدمها الصناعية حتى وصلت الى باب الغرفة المرادة.....لم تنتظر أفكار....فقط دخلت بعفوية الى الغرفة وهى تبحث فى أركانها.....عن شىء لا تعرفه

قالوا أن هذه الغرفة كانت غرفة أختها..

لم تعلم سر الكئابة التى تطمس هذه الغرفة..... ورائحة التبغ القديمة التى

تلبث بها ، كانت تميزها هذه المرآة العتيقة التى تقع بواجهة الفراش الصغير ، وهناك على الكومود..هذه الملزمة الصغيرة ذات الغلاف الأســود
لم تدرِ لماذا اتجهت ناحية هذه الملزمة..لم تدرِ لماذا تمسكها وتقلب فى صفحاتها الصفراء التى تعج بكلام وعبارات وخواطر....تـنم عن تدهور الحالة النفسية لكاتبها
وقفت عند هذه الجملة التى -ولسبب لا تعرفه- اجبرت عينها على قراءتها والغرق فى حروفها لدرجة مبالغ فيها :
-- لا تتكرس حالتك فى هرمون يفرز..
بل الحقيقة كلها تكمن هنــاك
تحت القشرة.....فى لبّ داخلك...
ينبعث من بين طيات روحك....من وجدانــك-
لا تعرف لماذا لمست هذه الكلمات منطقة حساسة أدت الى رجفة اجتاحتها من الداخـل ، منطقة معينة من ذاكرتها الواهنة...تشعر بأنها قرأت..أو سمعت هذه الكلمات فى لحظة مــا.....فى لحظة ما شعرت أن هذه الرجفة ليست جديدة على أعصابها
انتشلتها من ذهولها هذه المرآة..
لماذا تشعر بأن هذه المرآة غريبة ؟! ، تعكس الغرفة وتعكس صورتها كما هى..
ولكنها تشعر بأن التى فى المرآة...ليست هى..
هذه الأفكار ستقودك للجنون...يجب أن تكُفِ عن هذا !
هذا جنون بالفعل ! ، كيف حدث هذا ؟! ، التى فى المرآة تحركت من مكانها واقتربت من الزجاج ، هى لم تتحرك من مكانها.....صورتها فى المرآة تحركت من تلقاء نفسها !
اقتربت مَنْ فى المرآة من الزجاج....ابتسمت ،شعرت حينها أن قلبها يطلق السباب بسبب الضغط الواقع عليه
لماذا تفعل هذا ؟!
لماذا تبتسم..ثم تخمد ابتسامتها لتتحول الى امارات ألم واضحة ، عضلات وجهها تتقلص بسبب ألـمـا ما يجتاحها ! ، لماذا تفعل هذا.....لماذا تمسك بشعرها

وتمزقه بقوة ليطلع فى يدها.....ثم تنظر الى يدها التى تحمل خصلات شعرها...
وتفتح فمها بقوة وكأنها تصرخ....ولكن ليس هناك صوت صادر !
ارتعشت قدمها بالكامل وكادت أن تفقد توازنها..
مازالت مَنْ فى المرآة تمزق شعرها حتى قارب على الانتهـــاء...
لا.....لا تستطيع كتمها أكثر..ستطلقها....ستطلق لصرختها العنان وبعد ذلك ستفقد وعيها لترتاح قليلا.....غير معقول كل هذا الضغط المرمى على عاتقها..
مزق صرختها التى كادت ان تندلع هذا الذى يسمى نفسه.....خطيبها..
دلف فجأة الى الغرفة وهو يتنحنح بصوت عالى ، نظر لها بعيون عابقة بمشاعر.
..ثم أردف:
--تأخرتِ فى الحمام..قلقت عليكِ ، ثم وجدتك هنا.....ماذا بكِ ؟!-

* * *

توالت الأحداث بسرعة جدا
منذ اللحظة التى قال لى فيها بخجل أنه يريد الزواج فى أسرع وقت...والأحداث بدأت فى التوالى بسرعة شديدة ، قالها منتظرا منى رفض بسبب الحادث وموت شقيقتى...ولكنى وافقت....ليس حبـا....فقط أريد أحداث تبدد هذا الملل..
تزيل هذه المشاعر المجهولة التى تختلج فى صدرى...لا أعرف ماهى ولكنها تسبب لى ألم..حزن حاد يشقق داخلى تدريجيا
تزوجنا وأقمنا حفل عائلى صغير فى بيت أسرتى..
وفجأة وجدت نفسى راقدة على فراشه....وهو بجانبى يغطّ فى نوم عميق بعد أن أفرغ اشتياقه لـى
كانت الساعة تشير الى الثالثة بعد منتصف الليل..
حينها شعرت بأنى يجب أن أخرج للصالة ألقى نظرة على شىء لا أعرفه ، وكأنه نداء من عالم آخر لا أفقه عنه شىء.....قوة مبهمة غريبة تجذبنى بقوة حتى لفظتنى فى الصالة المظلمة ، هذا الضوء المتسلل للنافذة أرسله القمر بعطاء.....
.لولاه كان الظلام ملأ عيونى وحبس أنفاسـى ، ظللت أجوب بعينى الصالة على ضوء القمر الواهن ، ثمة شىء موجود فعلا....أشعر به..
جـاء من العدم هذا الصوت.....الرقيق..

--حُلوتى-
لم أستطع ادراك المصدر ، عرجت بسرعة نحو مفتاح الضوء وفتحته ليبدد هذا الظلام الكاتم ، حولت كل تركيزى لأذنى.....لم يحدث شىء
أطفأت النور مرة أخرى فجاء هذا الصوت بدوره
--ان أضأتِ المصابيح مرة أخرى سأذهب-
قالتها بحزن..بغضب ، ارتعشت حنجرتى قبل أن تلقى السؤال بصعوبة :
--من انتِ ؟!-
-- يقتلنى عدم تذكرك لـى ، أعلم أن الحادث سلب ذاكرتك....ولكنى اعتقدت أنه لن يستطيع أن يسلبنى من....روحك-
صمتت لوهلة ثم أكملت :
--أتذكرين الحديقة....الارجوحة...الكلب ؟! ،
الضحك...الحب...أتذكرين نفسك ؟ ، نحن روح واحدة ، فرقنا الموت اللعين.....
ولكنك ستستطيعين أن تتغلبِ عليه.....يا -حلوتى-
صمتت تماما ، لا أعلم ما حل بى ولكنى شعرت أنى أدمنت صوتها....أريد سماعه.
..أريد رؤيتها...استنشاق رائحتها.....احتضانها.....البكاء.....الصراخ
صرخت وصرخت حتى انفلقت حنجرتى..التهبت...اشتعلت
--منى ؟! ماذا حل بكِ ؟!-
قالها -يحيى- وهو يعدو ناحيتى مذعورا..ياكل الظلام حتى وصل الىّ ، وجدت نفسى أرتمى فى حضنه وأرتجف....وأبكى.....وأصرخ
قلبه كان يصرخ هو الآخر..شعرت بنبضاته القوية....
هذا الرجل يحبنى حقا

* * *

--متى عدت من الاسكندرية ؟-
قالها -يحيى- باسما الى صديقه -ممدوح- الذى آتى لزيارته ليبارك له ويتعرف على عروسته
--الاسبوع الماضى-
قالها -ممدوح- وهو يشعل لفافة التبغ الذى أصبح من عاشقيها منذ مدة ،

نفث سحابة كثيفة من الدخــان ونظر الى صديق طفولته -يحيى- قبل أن يقول:
--كيف تتزوج بدون حفل...وبدون أن تخبرنى ياصاحبى الوغد-
قالها مبتسما ليرد عليه -يحيى- فى خجل:
--ظروف خارجة عن ارادتى أرغمتنى على هذا ، كان كل شىء جميل حتى وقع الحادث المؤلم-
سحب -ممدوح- نفثا من سيجارته ثم قال فى اهتمام:
--حادث ماذا ؟!-
قبل أن تقفز الاجابة من فم -يحيى- الذى استعد لرويها..مزقتها -منى- التى دلفت الى غرفة الضيوف الجالسين بها حاملة أقداح شاى ساخنة تبدد البرد عن عظامهم ، بجرد دخولها قال -يحيى- مشيرا اليها باسما:
--أقدم لك يا سيدى.....مـنى.....زوجتى العزيزة-
انتهى من جملته فألقى -ممدوح- بنظره الذى انصب على -منى-
لم يعلم -يحيى- لماذا أدت صفعات القلق بوجه -ممدوح- ، لم يدرك لماذا حبات العرق أغرقت جبينه...ولماذا الهلع ملأ عيونه....ولماذا يبلع ريقه فى توتر رسم اماراته على حركات جسده ورعشة يداه
-ممدوح- كان ينظر ل-منى- والخوف يتملك منه ، هذه القدم الصناعية تؤكد شكوكه ، وتحولها يقينا هذه النظرات الثاقبة التى ترسلها عيونها لتنغمد به وبقلبه
اندلعت الذكريات فى عقله وأغرقت روحه وقلبه
يتذكر كل هذا ! ، هذه الفتاة التى خرجت له من السيارة مثل الأشباح...كانت تزحف بقدم واحدة وتتجه نحوه.....يتذكر أيضا شريحة الزجاج التى اقتلعتها من كف يدها لتشهرها وهى تزحف اليه ، يتذكر النظرات المطموسة بكراهية. ..بحقد...برغبة عارمة فى القتل والانتقام
ألم يقل -يحيى- حادث ؟!
اذن هذه الفتاة هى التى كانت فى السيارة الذى أدى مزاحه معها الى هرسها وازهاق أرواح من كانوا بها

أرجوكِ كفِ عن هذه النظرات المرعبة التى توجهينها لـى ، قلبى يمكنه أن يثب من فمى فى أى لحظة ، ايقاعه يزداد...يؤلم ضلوعى.....تتقلص له عضلات بطنى وضعت - منى - أقداح الشاى على المنضدة الواقعة بين زوجها وبين -ممدوح- ، تذكرته جيدا.....هذا الشعر الخفيف الأشقر والوجه المذعور لم يكف عن زيارة كابوسها.....تعرفه جيدا وتمنت كثيرا مقابلته...الوغد الذى سبب لها الجحيم الذى يجتاح حياتها بلا رحمة

كم تمنيت مقابلتك أيها الحقير

لم تنسى توجيه نظرات عاكسة لما يختلج بصدرها الآن...ألقتها عليه ليزداد رعبه ثم خرجت من الغرفة محددة طريقها....وخطوتها القادمة

مسح -ممدوح- جبينه بمنديله الورقى...محاولة فاشلة لازالة العرق الذى لا نهاية له ، قبض على القدح وقربه من فمه ليأخذ رشفة ساخنة تسكن داخله قليلا....ولكنه نظر بشك للقدح ووضعه ثانيا على المنضدة

فى هذه اللحظات كان -يحيى- ينظرله فى غباء ، سأله فى عدم فهم:

--ماذا حدث....هل انت مريض ؟!-

عاجله -ممدوح- :

--نعم....انفلونزا شديدة تفتك بعظامى وجهازى المناعى...علىّ أن أخرج الآن ، سأقابلك قريبا-

متلهفا قال جملته واتجه ناحية باب الغرفة ، أعقبه -يحيى- يفتح له الباب وينادى :

-منى-

نظر -ممدوح- له فى رعب ثم قال:

--لا داعى أن تسلم علىّ....سأراكم كثيرا على أية حال-

بمجرد انتهائه فتح باب الشقة وهرع ينزل من على الدرج ليصل سريعا الى أسفـــل ، ألقى نفسه فى أحضان الشارع والهواء النقى ، تنفس الصعداء فى راحة واتجه مهرولا الى سيارته التى جلبها حديثا من الصيانة...فقد أصابها تحطم بسبب حادث ما تعرضت له ، كان الطريق زلق وكانت هناك سيارة فى الافق... أراد المزاح وأراد أن ينشر الخوف قليلا ليقتل الملل الذى ملأ صدره حينها....أخذ

ينزلق بسيارته ويلعب بها على الطريق حتى اكتشف أنه لم ينشر الخوف..بل نشر المزاح على الطريق الوعر !
وجد السيارة تبادله المزاح الثقيل ، شعر بغيظ قليلا فأزاد الجرعة التى أدت الى تراقص السيارة التى هرسها الحادث...فتك بها ، أما سيارته هو فقط كانت من طراز حديث قليلا على عكس السيارة الأخرى..اكتفى باصدامه بشجرة أدت الى اندلاع بالون الأمان الذى غطس به وجهه.....بعدها بلحظات اكتشف أن مزاحه اللعين أدى الى كارثة
وصل الى سيارته....دسّ نفسه بها بينما عقله يعبق بأمطار ورعد وبرق وطريق وعر وحادث أليم ، أولج المفتاح وأدار المحرك الذى صرخ معلننا التحرك ، بسرعة سلك الطريق العمومى متجها الى منزله
فى هذه اللحظات تحدث شىء مبهم داخله ، شىء ما آتى من أعماق داخله.... قال له:
--انظر فى المرآة-
لا يعلم لماذا انقاد وراء هذا الشعور ورمق المرآة التى تعكس ما يقع وراءه ، التى تعكس هذه المرأة التى تنظر فى غضب شاهرة سكين حاد.....يعلمها جيدا. .....-مــنى- !
وسعت حدقة عينيه حتى امتلأ بها وجهه ، قلبه كان يتواثب فى ضلوعه.....بل قارب على التدلى فى قدميه ، -منى- تنظر بغضب.....بوعيد...بنظرة تحمل رعد وبرق وليلة ممطرة كئيبة
نصل السكين الحاد شق الهواء محددا طريقه بضمير...
عنقه.....بالذات

* * *

دلف -يحيى- الى الغرفة...حيث تجلس -منى- شاردة الذهن تتأمل السماء... تتابع بعينها شىء مــا ، تجوب فى فجوة أصابت ذاكرتها...بينما علامات الاستفهام تملؤها
--ماذا حل بكِ بعد هذا الحادث ؟! ماذا جرى لكِ يا جميلتى ؟!-
أفرغ كلماته واقترب يحتضنها ، نهضت بصعوبة بسبب قدمها الناقصة..دفعته

الى الخلف بغضب وهى تقول:
--أنا لا أستحقك-
صرخت بها فنظر فى ذهول
ظلت النظرات هى من تسود الموقف الواقع بينهم.....يمكنك سماع نبضات قلبهم الممزوجة العالية..التى فتكت بالصمت وأزالته
--ماذا تعنى ؟-
قالها فى رعب ، نظرت له نظرة تحمل كلمات كثيرة..لن يقوى اللسان على بوحها ، اخذت نفس عميق...أخرجته بجملتها التى ثقبت قلبه:
--أنا عليـــــاء-
نظر لها فى عدم فهم وقلبه يزيد من ايقاعه
--أنا لست منى-
أضافتها لتؤدى نفس المعنى ولكن بشكل أكثر قسوة ، بلع ريقه بصعوبة وقال فى ذهول:
--ولكن شعرك..-
قاطعته هى بسرعة:
--الجثة كانت بدون نصف رأسها العلوى عندما ألقيتوا نظرة عليها أليس كذلك-
أومأ برأسه أن -نعم-
--اذن من أين تعرف لون شعر الجثة....أليس ممكن أن أكون صبغته بنى لنصبح شىء واحد بالفعل ؟!-
--لكنك فاقدة الذاكرة !-
--ولكنى لم افقد روحـى.....أستطيع أن أشعر بها ، أستطيع أن أشعر باشتياقى لأنفاسها...لكلامها....لضحكاتها...أستطيع أن أشعر بفقدى لكل هذا..مع عدم تذكرى له ! -
--كيف عرفتِ أنك علياء؟!-
--هذه الصورة-
قالتها مشيرة الى صورة -منى-
--هذه ليست أنا..هذه من تفقدها روحى...يجتاحنى انجذاب ناحيتها...حب

جارف بداخلى يصرخ مناديا اسمها ، تنظر لى من كل اتجاه وصوب-
نظر نظرة تعرفها هى جيدا.....نظرة ننظرها لمن فقدوا صوابهم وسنعاملهم معاملة المجانين ، قررت حينها قلب المنضدة
--انت لم تحب منى-
باغتته بالجملة السابقة فنظر فى ذهول بينما أكملت هى:
--ان كنت أحببتها بصدق...لكنت شعرت أنى لست هى ، كنت ستشعر بأن الروح التى جذبتك ناحيتها ليست هى من تسكن هذا الجسد ، كنت ستشعر باشتياق بينما تحتضنى....ستشعر بوحدة وأنا بجانبك...ستشعر بأنك تفتقدنى بينما انت غارق فى أنفاسى ، كنت سترى فى عينى أنى لست هى-
قرر أن يكف عن الصمت..تنحنح وقد بدأ فى تصديق كلامها:
--الحب ليس شىء ماورائى...يا.....يا عليـــاء-
--الحب لا يتكرس فى هرمون يفرز..انه هناك ، فى لبّ داخلك...يأتى من بين طيات روحـك...من وجدانك-
انتهت من جملتها واتجهت عارجة ناحية النافذة المفتوحة التى تطل على الشارع العمومى ، صعدت تجلس على الحافة.....فاندفع -يحيى- ناحيتها يصرخ فيها:
--منى ! ماذا تفعلـى يا مجنونة ؟!-
--انا لست مـــــنى !!-
قالتها ضاغطة على كلماتها....بينما قدمها الحديدية تضرب أسفل حزامه..ثم صدره ليسقط على الأرض وينظر فى ذهول:
--ماذا تفعلين ؟! ماذا تنوين ؟!-
أدارت ظهرها لتنظر الى الشارع...الارتفاع رهيب..يجعل السيارت تبدو كحب شباب فى وجه مراهق ! ، التمعت عيونها وهى تنظر الى الافق..
--سأذهب لـــها ، أنا وهى روحان امتزجا ليصبحا روح واحدة...شخص واحد ، اذا فقدت روح منهما ستجحم الأخرى وهى تبحث عن نصفها الآخر ، هذا ليس حب وجوه مثل حبك....انه حب آخر...اتصال قوى وعظيم....لا ينتهى بانتهاء الحياة...فالأرواح أبدية لا تنتهى أبدا ، لن أستطيع أن أبقى على قيد الحياة

بينما جزء كبير من روحى مفقود فى غيابها عالم لا أعرف عنه شىء ، سأذهـب لـــهـــــا-
انتهت وتركت نفسها للهواء الطلق...
يهرول جسدها للأسفل وهو يلتهم الهواء من أمامه.....تسمع نداء يبعد تدريجيا يحمل اسمها...وحبائل -يحيى- الصوتية
ظهرت هى فى الافق...تبتسم لها.....ترسل لها قبلة..تعقبها غمزة..
--لا تقلقِ يا حلوتى.....لحظات وسأرافقك-

* * *

كان راقدا على الفراش والأقطاب تلتصق بكل جزء من جسده ، وجهه شاحب وعينيه لا تكف عن الحركة خلف جفنه المتدلى
وقفت -آيــة- ترمقه من خلف زجاج الغرفة ولم تشبع بعد من تأمل ذلك المشهد ، قالوا لها الأطباء أنها غيبوبة ولا أحد يعلم متى سيفيق...ومعنى ذلك لا احد يعلم متى سينتهى ما يعانيه
لقد فهمت الى حد ما كنه ما يحدث ل-نبيل- ، لقد قالت لها الغجرية أن روحه ستصبح هائمة تنتقل من جسد لجسد ، ولكن بطريقة محكمة نوعا ما.....لن تنتقل سوى لأجساد المعذبين ، لمن يعيشوا أتعس ما يمكن تخيله.....لمن ينهش الحب فى أجسادهم !
وما أن تنتهى الرحلة فى ذلك الجسد فينتقل الى جسد آخر لشخصا آخر يعيش ما لا يوجد أتعس منه ، سيمكث فى هذا العذاب الى أن يموت تماما وتسحب روحه من تلك الدوامة المقيتة
ما فهمته انه امر يشبه تناسخ الأرواح الى حد ما..
جاهدت لتمحو لمحة الشماتة الواضحة فى نظراتها أمام الشرطة والأصدقاء والعائلة ، كانت هى أول من ظفرت بشك الشرطة والمعارف ولكن والدها أكبر من أن يتم تحول الشك فى ابنته الى فعل له وجود مادى ، لن أقول أن والدها يمتلك منصب ما يعلو رؤوس الجميع....ولكنه يمتلك أموال تكفى لشراء اى منصب يقرر أن يمتلكه..
اذن -آيــة- تمتلك أموال تجعلها ترتدى ثوب من الذهب وحذاء من الماس

وعوينات من الفضة ! فلماذا وجدت نفسها وسط اولئك المعاتيه أصحاب الشعارات يهتكوا عرض كرامتها ! ، طرحت هذا السؤال على نفسها مرار فى الأيـام الماضية منذ دخول -نبيل- المشفى...ولم تجد اجابة تخمد صراخ الأفكار فى عقلها سوى انه ذلك الهرمون اللعين..

أمر مخيف أن تدمير حياتك يتوقف على افرازات هرمونية !

ترى هل انتهى -نبيل- من رحلته الأولى ؟! وترى ما هى وكيف كانت ؟!

لا تتوقف التساؤلات بالرغم أنها لا تقتنع أنه سيمر بحياة كاملة فى بضع أيام ، ولكن حركة عينيه السريعة تخبرها انه يعيش الآن ملحمة درامية بكل مراحلها ومشاعرها فى وقت قصير !

فليخلد الى الجحيم ، ويأكل أرز مع الشياطين

* * *

كان يرى صورة ضبابية لمجموعة من الأشخاص يتحركوا بشكل هستيرى أمامه والصراخ لا يفارق نبرتهم ، حالة عامة من القلق تستحوذ على اولئك البشر !

استنبط أنهم أطباء وممرضات يحاولون انتشاله من ما هو بداخله ، لا يعرف بالضبط ما يمر به ولكنه يتعذب فى كل لحظة يعيشها ، يتجرع من بحر ألام لا يبصر نهايته

لمح خصلاتها الذهبية تتلألأ فى الأفق ، لا يعرف اذا كان يهذى ام حقيقة...فقد قدرة التفرقة بين الواقع والخيال ، ولكن اذا كان ذلك حقيقيا فان -آية- موجودة فى المشفى ومن ذلك الاحمرار المتأجج فى وجهها خمن أنها تبكى بحرقة عليه ! ، هل هى من رمته الى ذلك الجحيم الذى يصلاه !؟

من الواضح أنه يفارق الحياة اخيرا ، ولكن اولئك الذين يصرخون فى بعضهم يحاولوا ان يبقوا على انفاسهم لأياما اضافية ، ليغط فى ذلك العذاب لأياما أضافية !

فى تلك اللحظة سمع أحدهم يصرخ :

--سنبدأ ب ٢٢٠ فولت.....١٢٣-

اللعنة !

* * *

- جنــون -

كانت الأمور تسير على نمطها التقليدى
هذا النمط الذى عرضته الشاشة وحكته القصص حتى الابتذال ، رآها فى حفل زفاف أحد أصدقاؤه ، بدأت الأمور بقلب يدق بقوة خمسة ريختر..ابتسامات تملؤ الوجه...ونظرات تختلس ، يسأل هو عنها صديقه وهى تسأل صديقتها... يبدأ الحديث بينهم فى النمو بداية من الخجل والحملقة فى الأرض أثناء الكلام والوجنتان الحمرواتان ، حتى الحديث فى الهاتف طوال الليل والخروجات التى تستنزف اليوم بطوله
وتسير بهم الأمور المعروفة حتى الزواج
وهنا يبدأ شكل آخر من الأحداث التقليدية
شهر عسل مدته أسبوعين ! لا يفعلا فيه شىء سوى الخروجات والمعاشرة ، وبعده يسكنا بيتهم أو جنتهم من وجهة نظرهما ، يبذلوا قصارى جهدهم حتى يخفيا عيوبهم التى تبرز فى المنزل ، دلال مبالغ فيه يجتاح الحياة وحب يغلف المنزل ويغلف داخلهم...يشعرون حينها أنهم أدم وحواء فى الجنة..لكن بدون تفاحة ، حتى تبتلعهم داومة العمل والمشاكل التى حاولوا ألا يروها ، فيبدأ الروتين ، تصبح عبارات الحب روتين..والمعاشرة روتين...والحياة مع بعضهم البعض روتين ، فيلقى حب المراهقين حتفه ويجرى بهم العمر دون وقوف حتى يكتشفوا أن الوقت بنى شىء أقوى يسمى العشرة...
ولكن فى حالتهم هم لم يمروا بكل تلك المراحل..فحياتهم انحرفت عن المسار التقليدى
آخر ما مروا به من الأحداث التقليدية هو الدلال المبالغ فيه والحب الذى غلفهم بالكامل ، كانوا سيكملوا المسار لولا موت والدها المفاجىء
موت والدها غمد فى صدر حياتهم..

فى تلك الليلة كانوا يشاهدوا فى التلفاز مسلسل تابعوه معا منذ بداية زواجهم كانت القناة تذيع الحلقة الأخيرة ، وفى الخارج كانت الأمطار تهطل والشوارع تعبق برائحة الأسفلت المبتل ، الرائحة تسللت الى داخل منزلهم فامتلأ بها صدرها..فهى تعشق هذه الرائحة ، وبالكاد تسيطر على نفسها من النزول الى الشارع واللعب فى الطين

كانت الحلقة قاربت على الانتهاء والصمت يدوى فى الشقة لينتبهوا الى آخر مشهد ، بتر انتباههم هذا الدق الصاخب الذى كان يهشم باب شقتهم ، نهض هو مهرولا يفتح الباب ليلفظ الخارج هذا الراجل المبتل اللاهث ، يعرفه جيدا.. هذا ابن خالتها -عماد- ، جثا -عماد - على الأرض يجمع أنفاسه المتبعثرة ويبلل ريقه الذى جف من العدو ، نهضت هى تاركة المسلسل تنظر الى -عماد- بعيون تكدست بها تساؤلات...حتى أخيرا لفظ هو جملته التى سحقت تساؤلهم..

--والدك يا هيــام....توفى اليوم-

لم تتغير معالم وجهها..مكث فى وجهها هذا التعبير الجامد الذى يوحى بلاشىء ، نظر زوجها لها منتظرا بكاء مرير أو صراخ يمزق الأطبال..ولكنها ظلت صامتة لا تفعل شىء ، لم تهتز لها شعرة..فقط أخذت تجوب بعينيها ما حولها فى استغراب وكأنها تحاول الاستيقاظ من كابوس مزعج...ثم اتجهت ناحية التلفاز لتتابع بقية المسلسل

* * *

مكثت بغرفتها أسبوع..

أسبوع جف فيه لسانها لقلة استعماله ، وتحدد أسفل عيونها بهذا السواد ، وطالت أظافرها وثار شعرها ، أصبحت غرفتها كالقبر وأصبحت هى كالأموات ، لا تخرج منها الا لتستطيع أن تبقى على قيد الحياة..تأكل وتشرب وتجعل الغرفة تتنفس قليلا

لم ينبس هو ببنت شفة ، كان يراقب كل هذا وداخله يتمزق وقلبه يرتجف خوفا عليها ، وما كان يطمئنه ويرجفه فى نفس الوقت هذه الجولات الغريبة التى كانت تأخذها بين الحين والآخر ، قبل منتصف الليل تخرج وتعود قبيل الفجر بابتسامة تعلو وجهها

ظن أنها تتعاطى مخدر ما ولكنه لم يقتنع بهذا الاحتمال..حتى ملأ عقله احتمال آخر..أنها تخونـــه !
وصل به الأمر أن يتسلل خلفها لمراقبتها
كان يسير خلفها بسيارته وداخله يرتعش خوفا من تأكد شكوكه ، ظل خلفها حتى وجدها تصعد الى عيادة طبيب نفسى ، دغدغته الحقيقة فضحك مستهزءا بنفسه وعاد الى المنزل ينتظرها
كانت الليلة ممطرة والشوارع خالية حتى من الحيوانات..فزاد قلقه عليها حتى وجدها تدخل من باب الشقة والمياه تكسوها ، ولكن ما استغرب بشأنه أنها كانت تسير حافية القدمين فغاصت قدميها فى طين أخفى ملامحها
كانت مبتهجة أيضا...ناولت فمه قبلة مفتعلة ودلفت الى الغرفة وغطت فى نوم عميق
انتهى به الأمر داخل عيادة الطبيب النفسى
ليس للعلاج..بل للسرقة ، نعم كان الفجر قد جاء وتخللت الخيوط المضيئة الظلام ولكنه لم يكن بحاجة لهذا الضوء..كان يحمل مصباحه ويجوب فى الغرفة بحثا عن شىء ما حتى وجد هذا الباب الذى يتوسط المكتب ، كان داخل الباب يعج بالشرائط التسجيلية ، فوق كل شريط اسم المريض الذى تكدس الشريط بأسراره ، ظل يبحث على ضوء المصباح وبعض الضوء الذى تسلل من الشباك.. حتى وجد شريط حامل لاسمها...-هيـــام-

* * *

دلف الى الشقة بعد عودته من جلسة اشتاق لها مع أصدقائه. بالطبع جاهد حتى أخفى أى علامات تفشى عن ما عايشه فى هذه الأيام ، فقط سألوه عن والد زوجته وكيف لقى حتفه فجأة ، أخبرهم ما حدث...ذهب الى المطار ليستقبل صديق قديم من السفر وأثناء عودته به انقلبت السيارة ليصعد السر الالهى لهما هما الاثنين
بعد أن دخل الشقة اتجه الى غرفة النوم ليجد -هيام- تستيقظ وهى تقاوم سكرات النوم ، بدل ثيابه وهو ينتظر بلهفة سماع صوتها ولو لمرة ، ولكنه سيسمعه بمجرد خروجها..سيشغل الشريط وسيربض بجانبه حتى ينتهى

نهضت هى واتجهت الى المطبخ لتدلق بعض المياه فى جوفها حتى تتمكن من البقاء حية ، أصبحت ذابلة لا يستطيع أحد رويها ، وجهها شحب وتلون بأصفر مقيت ، عيونها بهتت واسود أسفلها ، نحلت حتى لفظ ظهرها عمودها الفقرى فظهرت معالمه أسفل ثيابها....أصبحت ميت يسير على الأقدام
خرج هو من الغرفة ودخلت هى لتبدل ثيابها استعداد للخروج ، لم يستطع المقاومة اكثر من هذا ، هرع الى الغرفة وبحث عن مشغل الشرائط حتى وجده ، أخرجه ونفث ما عليه من اتربة ، ذهب الى بنطاله الذى كان يرتديه أمس وأخرج منه الشريط ليدسه داخل المشغل ويضغط زر التشغيل....سمع صوتها يصدر منه فأخمده بسرعة ، هكذا روى جزء من فضوله بمعرفته أن المشغل- الذى أحضره معه أثناء الزواج ولا يعرف لماذا- يعمل جيدا
سمع صوت باب الغرفة ينفتح ثم خطواتها متجهة ناحية باب الشقة ثم باب الشقة ينفتح وينغلق وخطواتها على درج العمارة متجهة لأسفل ، مهرولا ضغط زر التشغيل فهدر صوتها من المشغل فأخفض الصوت قليلا ووضع المشغل على المنضدة بجانبه....وانتبه وكله أذان صاغية..
-ما سأحكيه لك أعرف انه تقليدى نوعا ما..ولكنه ما حدث..
بدأت الأمور فى فترة مراهقتى
كنت أهيم حبا بابن الجيران كالمعتاد...اسمه -على- ، حب المراهقة هذا الذى يستحوذ حياتك بأكملها فتشعر انك ولدت لأجله وعلى استعداد تام للموت لأجله ، بصراحة لم أجد أطهر وأعظم من هذا الحب ، حب يجعل دقات قلبك تهدر داخل ضلوعك ، حب يجعلك عاشق للجلوس وحيدا لتتمكن من الانفراد بأحلام يقظتك..فتراه بها ، حب يطهر داخلك فتغير كل ماهو بغيض من أجله ، لا تندثر فيه أى شهوات أو مصالح ، فقط انت تريد حبيبك بجانبك الى الأبد ، تريد استنشاق رائحته...ملمس يداه..نظرته التى تسحبك الى عينيه فتضيع فى غياهبه ،تجد أن الحياة تخلو من كل شىء عدا هو
هذا الحب الطاهر بكل ما فيه من مميزات وبكل مراحله عايشته مع -على- ، بداية من اختلاس النظرات من خلف النافذة مارا بالنظرات الصريحة والابتسامات المتوارية والجوابات التى تعج بكلام صادق منبعه القلب ، ثم

ارسال شرائط لكاظم الساهر وعمرو دياب ، ثم هدايا تترك أمام الباب قبل قرعة الجرس السريعة ، كل هذه الأمور عندما أتذكرها تنكزنى فى قلبى نكزة لا اعلم معناها ألم أم اشتياق ، هل تعلم...مازلت احتفظ بزجاجة عطر جلبها لى حتى الآن-

شرع الغيظ فى الاستيلاء على أعصاب -عبد الرحمن - الجالس يتابع كلامها ، جاء صوت الطبيب يقاطعها وهو يقول..

--أتحتفظين بها حتى بعد زواجك من عبد الرحمن-

هنا عدل -عبد الرحمن- من جلسته تركيزا..

-نعم مازلت احتفظ بها-

لحظة صمت ثم قال لها الطبيب أن تكمل..

-دخلنا الجامعة فزاد ارتباطنا قوة ، وتطور الى مقابلات مختلسة وتشابك أصابعنا الذى كان يجعل الدماء تنتفض داخل عروقى

فى فترة الجامعة كنّا قد وصلنا الى مرحلة اختيار لون دهان منزلنا المستقبلى وشكل الغرفة ولون المفرش وأسماء أبناؤنا

كانت الأحلام تبتلعنا كلما جلسنا سويا...حتى تخرجنا وقررنا أن يأتى البيت لطلب يدى من أبــى ، اتصل والده بأبى وحدد موعد لزيارة ، بصراحة لم أجد أى علامات قبول على وجه أبى الممتعض ، وعندما جاء -على- مع والده كنت أنا متوارية خلف ستارة تطل على الصالة التى جلس بها -على- ، أذكر حينها أنه لمحنى فانفلتت ابستامة أعقبها بغمزة أشعلت صدرى من الفرح

أما أبى فبدأ الحديث بالأسئلة الثقيلة الباحثة عن الشقة والمال وكل هذه التفاهات ، أهل -على- كانوا محدودى الدخل فكانت عروضهم بسيطة بالنسبة لأبى....الذى رفض عروضهم بحدة ! ، نعم..رفض أبى زواجى من -على- ، كان كلامه الأخير لهم كسكين يغمد فى صدرى ، ونظرات -على- التى كان يرسلها لى بعد كل كلمة من أبى قد سببت دموعى التى أغرقت ثيابى ، أدركت حينها أن الاحلام التى بنيناها سويا ستبقى أحلام

ولكن حزنى بقى ناقصا..فعلمت بعد ذلك أن -على- اتفق مع أبى أن يسافر بضعة سنين يجمع أموال تمكنه من عرض عروض تليق بى..أو بأبى

سافر -على- وكانت سنوات سفره الأولى تعج بمكالمات بيننا ومواصلة بناء الأحلام ، استمرينا هكذا لعام كامل حتى سحقنا أبـى سحقا ، أخبرنى أنه سيزوجنى ب -عماد- ابن خالتى
انقطعت مكالمات -على- فابتلعنى اكتئاب غلفنى بالكامل
مرت أشهر يحاول فيها أبى اقناعى ب-عماد- حتى رأيت -عبد الرحمن- فى حفل زفاف شقيق صديقتى ، لم أنسى -على- ولكن لمحة الاعجاب التى راودتنى ناحية -عبد الرحمن- كما أنه الطريق الوحيد لهروبى من زواجى ب-عماد- واحتمالية طلاقى منه فور عودة -على- جعلتنى أقبل عرض زواجه ، لا أنكر اعجابى به وأنه جعلنى لا أفكر فى -على- لليالى كثيرة...لا أنكر أيضا حضنه الدافىء الذى يستحوذنى فأشعر انه مخبأى من الدنيا بكل مصائبها ، أحببت -عبد الرحمن- لدرجة انستنى -على- بالفعل..ظل كل هذا جميل حتى علمت بعودة -على- من السفر....و.....-
صمت الشريط !
أمسك -عبد الرحمن-بالمشغل وصدمه بالمنضدة..لم يشتغل الشريط ! ، أخرجه وقام برجّه ثم دسه مرة أخرى داخل المشغل...لم يفلح هذا أيضا ، انتهى به الأمر يقبض على المشغل ويلقيه بقوة على الحائط ليتحول الى شظايا متناثرة أسفل قدميه
كان -عبد الرحمن- وصل الى مرحلة من الجنون المؤقت ، صدره يصعد ويهبط. .وصوت لهاثه يدمدم..وعيناه تطلق شرار يستطيع اشعال الشقة به ! ، لا يستطيع مقاومة هواجسه الذى امتلأت رأسه بصوتها ، هرع الى باب الشقة ثم الى سيارته وسار فى طريق يعرفه جيدا..

* * *

اقتحم البناية والنار موقدة فى أعصابه حتى احترقت دماؤه ، هواجسه أكلت مخه فلم يعد له منطق يوقفه
ابتلعه المصعد حتى لفظه أمام عيادة الطبيب..تجاوز الباب ثم أسرع الخطى وسط المرضى المذعورين الى غرفة الطبيب ، هنا نهضت الممرضة تحاول لحاقه باقناعه أن ينتظر دوره..ولكن لمن تتحدث ! ، ركل باب الغرفة بقدمه ثم دخل

والادرينالين مازال يفرز بوفرة
كان الطبيب جالس بهدوء يراقب ما يحدث ، ظل -عبد الرحمن- ينظر له بعيون كادت أن تهجر محجريها ، نهض الطبيب وأشار الى الممرضة أن تتركه فى سلام ، بمجرد خروجها نطق -عبد الرحمن- جملته..
--أنا زوج هيام-
ابتسم الطبيب وكأنه كان على علم...بهدوء أردف..
--اؤمر-
هدأ صعود وهبوط صدر -عبد الرحمن- ، لوهلة كان سيتراجع ويعود الى منزله فى سلام ، استنزف دقيقة صمت ونظرات متحدية حتى قال..
-- هيام تخوننى مع على هذا ؟!-
قالها وداخله يصرخ فى الأرض لتبتلعه
هنا أعلن الطبيب حرب الأعصاب ، تناول سيجارة وبهدوء دسها فى فمه و أشعلها ليشتعل معها صدر -عبد الرحمن- ، لحظات صمت جثمت على أنفاسه وكادت أن تفتك به..لولا تكلم الطبيب البارد مستخدم عنصر المفجأة..بدأ لسانه فى رمى الكلام من فمه وكل خلية من مخ -عبد الرحمن- منتبهة لكل حرف..
--نــعم-
فى هذه اللحظة لقت أعصابه حتفها ، هواجسه تأكدت فاجتاحته خيالات تعرض له زوجته وهى على الفراش مع رجل غيره ، غرق الصمت فى صوت دمدمة قلبه الذى هشم ضلوعه ، وأفرزت مسامه العرق فى هيستريا ، بينما انغمس هو فى خيالات تقتله..قال الطبيب بنفس النبرة الباردة..
--وان كانت مدام هيام ليست بالمنزل الآن..فاؤكد لك أنها فى موعد معاشرة مع على-
كشفت كلمات الطبيب عن هواية سادية فى تعذيب البشر وسحق اعصابهم ، اكملت كلماته نحت التمثال الواقف ثابت فى واجهته..بل ونفخت فيه الروح ليباغته بلكمة بصقته للوراء أمتار ليصدم رأسه فى الأرض وتتدلى عويناته من على أنفه ، رقد على الأرض والدماء تنزلق من فمه ، ثم سمع وقع خطوات -عبد الرحمن- المتجهة الى الخارج ، نهض بسرعة شاب وهو يجلجل باسمه مناديا...

ولكن أذان -عبد الرحمن- كانت مطموسة بالكلمات السابقة..ولا تسع لكلمات أخرى..

* * *

مرت عليه ساعـة موت..
ساعة كشفت له لبّ حياته والدور الذى يلعبه ، ذابت القشرة وتطلعت عليه الحقيقة بوقاحة ، فكر فى كل نظرة ابتلعته بها وكل كلمة أذابته بها وكل حضن خدرته به ، لم يعد يصدق أن هناك شىء حقيقى ، اندلعت الأكاذيب فلطمته لتتغير نظرته الى كل شىء من حوله
انتزعه من دوامته صوت المفتاح وهو يخترق ثقب الباب ، انفتح لتبرز هى من الخارج وتخطو الى الداخل بخطوات بطيئة
كان يملؤ وجهها الصمت...والحزن ! ، جلست بواجهته ليلاحظ العناء المرسوم على وجهها ، رئتاها تستنجد اكسجين استنزفه هو فى غيابها
بعد عدة ثوان لاحظت علبة سجائره الراقدة على المنضدة الواقعة بينهم ، مدت يدها لتلتقطها فتطلعت عليها قداحة كانت متوارية خلف العلبة..فأخذتها الآخرى ، تناولت سيجارة أصبحت تعشقها ودستها فى فمها...أشعلتها بالقداحة وبدأت حرب استنزاف معها
تواجهت عيونهما..
كانت نظرته تعبق برغبة ملحة فى البصق على وجهها ، ادرينالينه يدفعه دفعا الى لفظ هذه الرغبات المكبوتة الى أفعال حقيقية ، قدمه ترقص توترا ويداه لا تسكن أبدا ، هتكت الخيالات عرض عقله وغدته الكظرية..
أمّا هى فنظرتها كانت غير متوقعة..
كانت عيونها مكدسة باعجاب غير برىء ، كانت تجوب بها جسده كله ووجها يتلون بأحمر سببه واضح ، تسحب نفس السيجارة باستمتاع وكأنها فى ذروة متعتها ، وتنفثه وهى تتأمله أكثر ، ابتسمت لوهلة..عضت شفاهها لوهلة ، أدرك فمها التبغ المشتعل فعلمت أن السيجارة احتضرت فى فمها...وضعتها فى المطفأة لترقد فى سلام ، ثم تابعت تأملها لجسده
لاحظ هو نظراتها الوقحة فنهض وداخله يلعنها ألف مرة ، لم يكفيها ذكر واحد

! تعاشره وتأتى هنا لتحصل على رعشتها الثانية ! ، كان عقله يعج بهذه الجمل.
..وعيونه تعج بدموع مكبوتة يرفض ذرفها ، جلس على حافة الفراش فواجهته ملابسها المعلقة على الباب ، أصبح على يقين أن من تجلس بالخارج تدخن وتنظر بوقاحة..ليست هى من تزوج بها....ليست هى صاحبة هذه الملابس.. ولا هذا العطر الذى تفوح به الغرفة
دخلت الغرفة وجلست خلفه على الفراش ، يريد أن يسمع صوتها ، يريد التأكد من ان نبرتها لم تتغير..يريد بعض الراحة تهدىء ما بداخل عروقه ، يريد أن يشعر ان كل شىء كما هو..كل شىء على مايرام..
--البيت أصبح كالقبور-
هذه من فمه هو ، لم يستطع مقاومة هذه الرغبة العارمة فى التحدث اليها. .بالكاد يسيطر على نفسه من احتضانها والبكاء وهى تحوطه بذراعيها ، كان هذا الاحساس يقتله ، هى سبب بكاؤه ومع ذلك لا يجد مكان للبكاء الا داخل حضنها الذى يعشقه
--وهل يوجد مكان أجمل من القبور-
بالرغم من أن الجملة ولدت له علامة استفهام اخرى اصطفت داخل عقله المتكدس بها ، الا ان صوتها أثار عضلة قلبه كالسابق ، شعر مرة اخرى بهذه النكزة اللطيفة التى أصابت ضلوعه بحنان ، شعر انهم مازلوا فى فترة الخطوبة.
...تنفس بعمق ثم قال
--أستطيع ملاحظة هذا التغيير الذى دب فى علاقتنا-
-أجمل من روتين يقتلها ببطىء-
-أين كنتى اليوم؟-
السؤال كان فى عقله منذ دخولها البيت ، انزلق فجأة من عقله الى لسانه الذى دلعه الى الخارج بدون تفكير ، السؤال باغته كما باغتها هى بالظبط..
--فى المقابر لزيارة أبـى-
استشعر هذا البرود الذى تعج ردودها به ، قال فى توتر..
--وهل توجد مقابربالليل-
--المقابر لا تحلو الا بالليل ، ثم أننى قمت بالزيارة فى المغرب...وفى طريق

عودتى جلست فى كافيه-
لا يستطيع اثبات شىء ، يختلج داخله بضعف..يهينه...يقتله
نهضت فجأة واتجهت ناحية مفتاح النور..
--لماذا أغلقتِ النور؟!-
--وهل يوجد أجمل من الظلام-
* * *
لم يكن يعلم لماذا يملؤ داخله احساس أنها ستخرج لمقابلته اليوم..
نهض مبكرا وظل يتأملها وهى نائمة ، لم يذهب الى عمله ، لم يأكل..
ارتدى ملابسه وظل يقتل فى سجائره منتظرا أن تخرج من قبرها لتذهب اليه ، ابتسم داخله وملأ جوفه بالاكسجين عندما وجدها تخرج من الغرفة متجهة الى باب الشقة ، فتك بما تبقى من سيجارته واتجه الى الشرفة ، ظل واقفا حتى وجدها تخرج من العمارة متجهة الى الشارع العمومى...أدرك انها ستأخذ سيارة أجرة
مهرولا استقل الدرج حتى وصل الى أسفل..كانت مازالت واقفة ، دس نفسه داخل سيارته وانتظر ذهابها ، مرت دقيقة حتى اقتنعت بها سيارة اجرة ما ، ابتلعتها لتنقلها الى حيث ذاهبة...وهو خلفها..
لفظتها السيارة فى طريق مظلم..الصمت حاكمه ، كان مازال وراءها متوارى فى ظلام انغمست فيه سيارته ، ظلت تمشى فى هذا الطريق الكاحل.ولولا نور القمر المسكوب على الطريق لما استطاع رؤيتها
ترجل هو الآخر من سيارته وخطا بخفة خلفها ، استمر السير لخمس دقائق حتى صرخت قدميه..وانتفخ عقله بعلامات استفهام يكاد ينفجر بسببها ، لم يفهم لماذا تذهب الى موعد غرامى بهذه الطريقة ! ما الذى يجبرها على سلك طرق كهذه فى وقت كهذا...وكيف لم تخف !..أتحبه الى هذه الدرجة.؟!
بتر تفكيره عندما اكتشف أنهم داخل المقابر !
لم يدر كيف ومتى دخلها ! ، فجأة وجد نفسه محاط بشواهد.. ورياح باردة تلعب بأعصابه.. وهدوء يقتله ، قلبه صرخ داخل ضلوعه فجاهد ليخمد صراخه ، لم تكن عينه عليها..أخذ يجوب بعينه حوله فى خوف ، كان ينظر الى كل قبر

يعبر من امامه منتظرا أن يخرج منه شيء ما
انغمس الصمت من حوله فى صوت قلبه الهادر ، كان العرق يكسو وجهه..بل جسده كله ، كما أن هذه الرعشة اللاارادية استحوذت على جسده بالكامل..
..لن ابالغ اذا قولت أنه أوشك على أن يبلل أسفله ، ففكرة أن كل الموجودين موتى تكاد تفتك به
انتهت هى من جولتها...
وقفت فجأة أمام قبر بعينه ، ظلت صامتة تحدق فيه حتى جاء من العدم هذا الرجل المريب ، رجل أسود يرتدى جلبابا بنى وعمة سوداء ، برز فجأة ووقف امامها يحدثها ، كل هذا كان يراقبه -عبد الرحمن- متواريا خلف قبر وقد أنساه الموقف خوفه ، خاصة عندما رأى -هيام- تعطى لهذا الرجل مال ، رأى الرجل يفتح القبر الذى كانت -هيام- تقف أمامه محدقة ، رأى هيام تدخل هذا القبر بعد أن اعاطها الرجل مصباح به شعلة متوهجة ، رأى الرجل يجلب مقعد ويجلس منتظرا أمام القبـر..!
ظل المشهد هكذا ، الرجل جالس أمام القبر يدخن فى هدوء ، -هيام- داخل القبر...و-عبد الرحمن- فقد قدرته على التفكير..!
ظل المشهد هكذا حتى صرخت مثانة الرجل المريب فنهض مهرولا ليلبى نداء الطبيعة المرير ، حينها اتخذ -عبد الرحمن- خطوة ناحية القبر ، خطا وداخله يرتعش مما سيطل عليه من الداخل ، بخطوات مرتعشة ظل يقترب حتى أصبح يرى ما يحدث بداخله...
مشهد يكتب فيــه آلاف الكتب..
جثة لرجل غريب مكشوف عنها الكفن ، بجانبها مصباح يحمل شعلة متوهجة تملؤ المكان بضوءها....وبجانب المصباح ملابس -هيام- ، -هيام- التى تعلو الجثة وهى عاريــة
ظل -عبد الرحمن- واقفا يراقب...ما يحدث..
كانت تمسك بيده..تضعها على كتفها فتنزلق يده لتبتسم هى ، تقبله بحرارة أشعلت شفاهها ، تداعبه..تلطمه...تحتضنه.. ، تجوب بيدها على كل جزء فى جسده..

كان يظهر على وجهها علامات نشوة تشى بأنها فى قمة متعتها..
كانت عيون -عبد الرحمن- قاربت على السقوط....بل سقطت بالفعل عندما رأى زوجته تميل على رقبة الجثة هذه وتقبض عليها بفمها..لتنتشل منها قطعة بقوة وتلوكها فى فمها بمتعة
لم يستطع التحمل أكثر ! ، شعر بزلزال يدب فى معدته...هرع الى المكان الذى كان فيه من البداية وأفرغ فيه معدته ، دبّ فى رأسه دوار يكاد يجعلها تتدلى على كتفيه ، حاول النهوض ولم يفلح ، جفونه تتثاقل بقوة غريبة...لا يريد أن يفقد وعيه داخل المقابر ، نهض بصعوبة كاسحة واتجه بخطوات سريعة ناحية المدخل الذى حفظ طريقه أثناء دخوله ، استمر فى السير فى الطريق المظلم متجها الى سيارته ، كان منظره يوحى بالجنون ! ، عيناه زائغتان...ملابسه غير مهندمة...شعره ثائر...ولهاثه هادر..
وصل الى سيارته فدس نفسه به وانطلق قبل أن يتمكن الدوار من رأسه..

* * *

--نيكروفيليـــا-
قالها الطبيب ل-عبد الرحمن- الجالس أمامه بوجه أخفى ملامحه العرق ، وصدر يصعد ويهبط كالمد والجزر ، ولهاث يجعل كلامه غير واضح ، عيناه مازالوا زائغتان...وقلبه مازال يحاول الخروج..
--نيكروفيـليـــا ؟!-
قالها -عبد الرحمن- عاقدا حاجبيه فى غباء..
--عشق مضاجعة الموتى-
استبشع -عبد الرحمن- الاسم....بلع ريقه بصعوبة ثم أردف..
--زوجتى تعشق الجثث ؟!-
رد الطبيب بسرعة..
--لا..فى حالة زوجتك هى تعشق جثة واحدة-
قذف السؤال من عين -عبد الرحمن- فادركه الطبيب..فقال..
--جثة علـــى-
-على ميـــــت !؟-

-هذا ما حاولت اخبارك به بعد أن لكمتنى
بعد معرفة على بزواجك انت وهيام استقل أول طائرة الى هــنا بعد أن أبلغ والد زوجتك أنه سيأتى اليك ويحكى لك كل شيء ، ذهب والد هيام الى المطار لاستقباله وتهدئته ، ولكن انقلبت بهما السيارة فى طريق عودتهم
لطم الخبر هيام ، فطفا على سطح قلبها حبها المندثر فى أعماقها...حبها لعلى ، واظبت على زيارة قبره كل يوم حتى تطور الأمر بها وبدأت فى الحديث معه على قبره..وتطور أكثر فأصبحت تعطى أموال للغفير ليجعلها تدخل وتكشف الكفن لتلقى نظره على وجهه ، ثم بدأت فى الجلوس بداخل القبر بجانبه والحديث معه وكانت احيانا تقبله قبل أن تخرج ، حتى انتهى بها الأمر تضاجعه...هكذا ولد مرضها -
--هل قابلت حالات مثل زوجتى من قبل؟-
-- حالات النيكروفيليا قلما تذهب الى طبيب نفسى لتعالج الأمر ، ولكن هناك حالات كثيرة معروفة برزها لنا التاريخ
مثل فرانسوا بيرتاند ، كان رقيب فى الجيش الفرنسى ، فرانسوا كان يمارس العادة السرية وعمره ثلاث سنوات ، كانت شهوته عالية من الصعب كبتها ، كان يدخل القبور حاملا سيفه ليمارس الجنس مع الجثث..وأحيانا فى قمة استمتاعه كان يقوم بقطع أوصال الجثث بسيفه..أو ينتزع قطعة من لحمهم ويلوكها..كما فعلت هيام مع على
وهناك حالات كثيرة أخرى ، كحفار قبور ايطالى كان يستمنى دائما عند دفنه لامرأة جميلة ، وتطورت معه الأمور فأصبح يلمس أجزاء من الجثة أثناء ممارسته العادة السرية..وانتهى به الأمر الى ممارسة الجنس معهن ، وتم القبض عليه متلبسا مع جثة -
--كفى هذا !-
أردفها -عبد الرحمن- بصعوبة بفعل الغثيان الذى استحوذ على معدته..
-- هل هيام مثل هؤلاء ؟!-
--للنيكروفيليا أسباب وأنماط عدة
هناك من يمارسها بسبب شهوته التى تتوهج أمام الجثة ، وهناك من يمارسها

بسبب ثقته المعدومة بنفسه وللتغلب على الانطواء والانعزالية ، وهناك من يمارسها لأنه يريد شريك بدون مقاومة ، وهناك من يمارسها من أجل حب قديم يريد عودته...هذه الأخيرة هى زوجتك..
وهناك أيضا أنماط كثيرة
مثل القاتل...هذا يقتل ليوفر لنفسه مادة خام يمارس معها ، وهناك من يكتفى بتخيل الجثة وهو يمارس معها ، وهناك من يمارس فقط..وهذه الأخيرة هى زوجتك أيضا..
أستاذ عبد الرحمن ، يجب أن تدرك جيدا أن زوجتك مريضة وليست خائنة ، وانت الوحيد الذى باستطاعته التغلب على مرضها-
--وما معنى نظراتها الىّ ليلة أمس-
--أخشى أن أقول لك أنها تخيلتك مكان على-
أثقلت الأفكار رأسه فشرع الدوار فى السيطرة عليها مرة أخرى ، بدأ التشويش فى احتلال مجال رؤيته حتى قارب على فقدان الوعى..
--هنااااااء-
أطلقها الطبيب بصرخة..
جاءت -هناء- الممرضة مهرولة الى الغرفة..
--ماء بسكر لأستاذ عبد الرحمن-
قالها فانطلقت -هناء- تلبى الطلب ، بينما تناول الطبيب قرص من علبة رابضة على المكتب ، دسها فى فم -عبد الرحمن- أعقبها برشفة ماء

* * *

أولج المفتاح بمكانه فى الباب ثم دخل الى الشقة ، أخذ ينظر ويتأمل فى كل ركن منها..وكلما نظر دبّ فى عقله ذكرى اخرى من ذكرياته معها
تذكر كل ما اشتاق له...وجهها الأبيض المنير وابتسامتها المخدرة وغياهب عيونها التى كانت تبتلعه بها دوما ، صوت ضحكتها الذى كان يدوى حتى يصل الى مسامع الجيران ، خفة حركتها وطريقة مشيها..وطريقة هروبها منه عندما كانت تمزح معه ، وجسدها ، ونظرتها له فى الفراش ، تذكر أيضا يوم الفرح والبهجة التى كان تملؤ قلبه وقلبها ، ونظرة الفرحة فى عينيها التى كانت تحييه

كلما نظر اليها ، تذكر -هيام- زوجته....حبيبته...ابنته...وصديقته ، نكزة أصابت قلبه وحزن اختلج به صدره
كانت جالسة أمام الشرفة تدخن متأملة ، دلف هو الى الغرفة وجزءه العلوى عاريا..
--اشتقت لكِ-
نطقها فنظرت اليه مبتسمة..
--وأنا أيضا-
لم تلاحظ هذا السكين الذى يحمله ويخبأه خلف ظهره ،أسند السكين على المنضدة بخبث وبدون أن تعرف هى ، اتجه ناحية الفراش المقابل للمقعد الذى تجلس هى عليه تنظر الى خارج الشرفة ، تنفس هو الصعداء قبل أن يقول..
--أعلم أنكِ تحبيه ، أعلم أنى كنسمة هواء باردة تداعبك لحظة اشتياق فتنتزعك من همومك ، ولكنى احبك...بشدة
لن أقول لكِ أنكِ لن تجدى من يحبك مثلى..ولكن حبى لكِ بالفعل شىء كبير ،لن أحب أحد كما أحببتك ، لن أستطيع أن أحب أحد كما أحببتك..لن أستطيع انتشالك من خلايا مخى التى أصبحت تعبق باسمك وصورتك ، لن أستطيع أن انسى رائحتك..ضحكتك..عينيكى..وعلى استعداد تام للموت لأجلك
ولكنى أعرف أنك تحبيه ، أعرف أنك لا تستطيعين نسيانه ، وأعرف أنكِ لن تحبينى بقدر حبك له...لا أعلم كيف أغير من شخص ميت ، ولكن هذا الميت امتلك قلبك ، هذا الميت سيبقى دائما حائط خرسانى بينى وبينك -
تجمعت هذه البلورة المائية داخل عينيها حتى سقطت لتتهشم ، لم يقاوم هو أيضا رغبة عارمة فى البكاء...فهو لا يريد أن يخفى عنها أى شىء فى تلك اللحظة ، أطلق الى عينيه العنان فانهالت منها دموع كثيفة أغرقت بنطاله
نهض واتجه الى المنضدة التى ترك عليها السكين..تناوله وعاد الى الفراش وجثا فوقه ، كانت تراقبه فى استغراب...ظلت تحملق فيه للحظات حتى أردف هو بابتسامة..
--هذه ستكون آخر هدية أهديها لكِ..
أرجو أن تكون سبب لأن أمكث بقلبك ، أمكث فى أعماق قلبك..وستأتى لحظات

سأطفو فيها على السطح..فتبتسمى..أو تبكى ، أرجو أن تحبينى مثلما أحببتيه ، أرجو الا تستطيعي نسيانى-
فى أثناء كلامه نهضت هى لتنظر له فى استغراب..فأكمل هو..
--حبك له يجثم فوق صدرى..لا أستطيع العيش هكذا !..
أرجوكِ يا حبيبــتى أحبيننى كما تحبيه ، اشتاقى لى كما تشتاقى له ، تذكرينى كما تتذكريه ، اقبلى هديتى..وعدينى أن أصبح قطعة من قلبك ، أحــبــك يا زوجتى-
انتهى من جملته الأخيرة ليضع السكين على رقبته ، هنا وسعت حدقة -عينيها وهى تصرخ فيه بكل ما تحمله من قوة...
--لا تــفــعــلــهــا ! ، أرجووك لا تفعلها-
لم ينتبه هو لهذه الكلمات ، فسحب السكين بقوة ليقطع كل عرق قابله ويفتك بأوصال رقبته ، تعالى حينها فحيحه الذى يشى عن ألمه ، وتعالت معه صرخات -هيام- التى سقطت ضعفا وهى تراقب احتضار زوجها ، اندلعت الدماء من رقبته لتكسو الفراش من أسفله
سقط على الفراش وهو يطلق تآوهات مكتومة ، يرتعش جسده ويخمد ومازالت الدماء تنزلق خارج أوردته ، -هيام- تكومت فى زاوية من الغرفة وهى تخمد صراخها بكلتا يداها وقد غرقت عيناها فى الدموع ، تراقب دماؤه وهى تهجر أوردته حاملة معها حياته لتستقر على الفراش الذى تلون بلونــها
أخذ يستنزف أنفاسه حتى لفظ نفسه الأخيــر...فخمد جسده وتراخى... وانعدمت قواه..
خمد صراخها هى الأخرى ، ولكن مازالت دموعها تنهال من عينيها
نهضت قسرا ومازال نحيبها يهدر..ويتعالى أكثر ، اتجهت ناحية الفراش لتصبح أمامه ، أخذت تتأمل المشهد وكل جزء من جسدها يرتعش ، نائم على ظهره برقبة هتكت السكين عرض أوصالها وعروقها ، الدماء تغرق صدره وتكسو الفراش ، وهناك أثار دموع أسفل عينيه ، ارتجفت..بل صرخت عندما انزلق السكين من يده ليرقد على الأرض
مدت يداها فجعلت الثوب ينزلق من على جسدها فتصبح عارية كما ولدت

، لم تدر بنفسها وهى تتجه ناحية الجثة ، لم تدر بنفسها وهى تعلوها وتلمس كل جزء منها..وتجوب بعينيها كل تفصيلة ، لم تدر بنفسها وهى تميل عليه وتنهال عليه بقبلات فى كل جزء من جسده ، انتزعت بنطاله وكل ما كان يرتديه وأخذت تقبله...تحتضنه..تلحس دماؤه وتذوقها..تلوك لحمه ، لم ترى نفسها وهى تنظر الى جثة زوجها بشهوة..والدماء تنهال من بين شدقيها..
ابتسمت...ارتعشت....نامت بجانبه وهى تتأمله....بكت..

* * *

لطاما أردت كسرها وتهشيم عنق كبريائها ، أعترف بهذا !
دائما أردت أن أفوز ، أردت أن أكون من يكسر ويؤلم ويظفر....من يمتلك زمام الأمور بيده ، أردت ان أراها تخسر أمامى....تبكى وتجثو على ركبتيها لتطلب الرحمة ، ولكنى لعبت اللعبة خطأ !
بدلا من جعلها تطلب الرحمة جعلتها تلجأ الى الانتقام ، وما أشرسه انتقام..
أنا أذق مرارة الحب والموت فى كل لحظة أتنفس بها
أنا أحبها ، أنا عالق بحبائلها ولا أجد مخرج !
وهذا هو السبب الرئيسى الذى دفعنى الى ما فعلته...هذا ما جعلنى أبصق على قلبها بدون تردد..
شىء مخيف أن تحب شخص بشدة لدرجة تجعلك مستعدا للموت من أجل أن تتنفس هى للحظات أخرى ، تشعر أنك ضعيف ولا تمتلك السيطرة على أفعالك ، لذلك قررت أن أغير المسار الذى رسمته لى مشاعرى ، قررت أن أسيطر على مشاعرى بل وأفعل عكس ما تريد ، هذا فعل لا يلجأ اليه سوى مريض نفسى فى حالة متقدمة....ولكنه الحب عندما يبلغ ذروته حتى لا تستطيع سماع عقلك وسط دمدمة نبضاتك
مازال ذلك الطبيب الشاب يصرخ فى وجهى :
--أرجووك قااوم ، تشبث بالحياة يا هذا ، سأنتشلك مما انت فيه أيا كان -
أنا أقاوم يا أبله ، ولكن هناك شيئا ما يجذبنى ولا يترك لى مساحة اختيار ! أقاوم من هنا فيسحبنى هو من هناك
--أرجوكِ يا استاذة آيــة كفى عن البكاء أو اخرجى من هنا فورا-

ان -آية- مازالت هنا ! ، أريد للسانى التحرر ولو للحظة واحدة ، أعتذر بها ثم أعود الى جهنم ، لا أريد أن أبقى هناك أو اموت وانا الشرير الوقح الذى كسر قلب فتاة بريئة...أنا لست هكذا !!

--قااوم يا نبيل ، قاااااوم -

أنا أقاوم !!

--كم فولت يا دكتور-

--٢٤٠ ، هلمى ! ، استعد يا نبيل ، ١٢٣..-

لا فائدة !

* * *

- مذكرات -

رمقت الملزمتين الراقدتين على مكتبى بسكون وعلى شفتى ابتسامة قد وصل معناها جيدا الى -عادل- الواقف أمامى فى ثبات مصطنع .
أعلم جيدا -عادل- وما يسبح فى جوف عقله.....فى الحقيقة أعرف جيدا هذا الطراز حديث التخرج ، يملؤه الحماس المبالغ فيه حتى انسكب داخله وأصبح واضح الرؤية جدا ، رميته بنظرة ثاقبة يتوارى خلفها كم من السخرية لا بأس به ، أشعلت لفافة تبغ بهدوء جيد لزيادة توتره لا أكثر.....كم أعشق تعذيب هؤلاء الفتية المتحمسين
--اذن انت تقول لى أن تلك المذكرات ستحل القضية...أليس كذلك ؟!-
قلتها فبدا التوتر يرقص على ملامحه.....بلع ريقه وقال فى احترام :
--بل أقول لنقرأها يا سيدى....ومن الممكن أن نجد الحل بين سطورها-
--مذكرات أستاذ حسين عبد العظيم ومدام عائشة متولى...ستحل القضية بشكل رائع-
قلت جملتى بلسان مفعم بسخرية أثارت عضلات وجهه الذى ظهر عليه الغضب شاهرا عن نفسه بوضوح
--اتركنى ساعة زمن....سأقرآهم وأقول لك ماذا وجدت-
علت شفتيه ابتسامة أفرطت الفرحة فى اتساعها وخرج من مكتبى بخطوات واثقة من نفسها ، ناديت على -شفيق- الساعى لأجده ماثل أمامى بعد نطقى آخر حرف من اسمه
--قهوة يا شفيق....لم أنم منذ أيام-
استلم الأمر وهبّ يذهب لينفذه
مسكت الملزمتين ، ملزمة أستاذ -حسين- خفيفة أوراقها قليلة....فالرجل بدأ فى كتابة مذكراته بعد وفاة ابنته - ندى- ، أمّا السيدة -عائشة- كانت العكس تماما.

...فهى تكتب مذكراتها منذ زمن...ولكن المهم يبدأ من الصفحة (...) ، هذا ما قاله -عادل- المتحمس
أعلم أن أستاذ -حسين- مدرس لغة عربية جهبز ، وصل مؤشر عمره الى الخمسين.
...سببت الدروس الخصوصية والمجموعات طمس جيبه بأموال ادخرها من أجل زواج ابنته الوحيدة....والتى وجدها يوما ممزقة وملقاة أمام عتبة منزله كالقمامة
أما السيدة -عائشة- زوجته.....فمن طراز الفنانة التى أطبق الزواج على طموحها ، رسامة مبدعة كما تقول صديقاتها....ولكن بعد زواجها فتك زوجها بموهبتها ودسها فى المنزل لتتكرس حياتها فى الفراش والآكل وتربية الذرية وكل هذه الأشياء التى أغرقت طموحها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة
دلف -شفيق- الى المكتب حاملا القدح الساخن....وضعه على مكتبى فى صمت وخرج بسرعة ، جاهدت حتى جمعت شظايا تركيزى المتبعثرة
نفثت دخانى وفتحت الملزمتين وسكبت رؤيتى وتركيزى على سطورهم....بفتور ، فقرأت ما يلى

* * *

كتابة المذكرات ليست عادتى
فقط هناك حقبة من حياتى دونت فيها أيامى التى أعقبت موت والدى-رحمه الله- وبعد أن استقرت عَبَرَاتى فى مكانها أقلعت عن هذا السخف ، ليس هناك داعى يجعلنى أكتب مذكراتى اليومية وتدوين كل ما يمر بى حتى ان كان هذه الذبابة التى وقفت بوقاحة على وجهى فى العصر ، هذا أمر ممل وليس منه فائدة
أعرف أن موت فلذة كبدى -ندى- هو ما دفعنى الى العودة لكتابة مذكراتى ، هكذا لا يجمعنى بالكتابة سوى الأيام التى تعج بالفراق والموت والقبور والعبرات الساخنة والذكريات الناهشة
لهذا فالمذكرات أمر شؤم لا أحب ذكره
الشمس تآبى أن تشرق تتوارى خلف الغيوم فى اصرار.....السحاب يتكاثر والظلمات تتكاثف ، الأمواج تتلاطم....والرعد يصرخ ويصر البرق على عدم

الظهور مفضلا الظلام الدامس
هذا هو الوصف الدقيق لما طرأ على مناخ داخلى بعد فراق ابنتى
فتاتى التى تحمل جزءا لا يستهان به من روحى....التى زهقت بعد موتها
أعلم أنه قضاء وقدر وأننا أعمار محددة تسير على الأرض ، ولكن ليس كل يوم يموت لى حبيب ، -ندى- كانت انفاسها تحيينى...زفيرها كان ينفث الحياة فى جسدى ، كانت دافعى لأبقى على قيد هذه الحياة...والآن لا يوجد ما يحمسنى على التنفس سوى الايمان به وبرحمته....سبحانه وتعالى
ولكنى أقع تحت ضغط نفسى عنـيـــــف !
قد وصل بى الحال أن أعصابى لم تعد تتحمل صوت عقارب الساعة....هذا يدفعنى دفعا الى الجنون.....أنا لا أطلب سوى النسيان..الرحـمة ، الصور لا تكف عن عرض نفسها أمام عيونى.....الكلمات تآبى الصمت بجانب أذناى ، هكذا تنهشنى الذكريات حتى لن يتبقى منى شىء ! ، لم أجد طريقة لسكب ما يحمله صدرى سكبا سوى الكتابة.....نفث سطور تعج بما يختلج داخل صدرى.
.....هكذا آمل فى الراحة قليلا
لا يعلم أحد من فعلها
فجأة وجدناها مقتولة ممزقة.....ضلوعها مهشمة وتجويف صدرها خالى من قلبها وملقاة على عتبة المنزل فى بجاحة
لا أعلم من فعلها...لكن..
لكن -ندى- تحاول اخبارى بما حدث.....تحاول أن تخبرنى بمن فعلها !

* * *

بـدايـة القـصـيـدة كـفـر !
كنت أعلم أن -عادل- معتوه وأن هذه المذكرات ما هى الا هبل امتلأت به السطور.....هذا كان انطباعى الأول عندما قرأت كلمات أستاذ -حسين-
ولكنه حال الى اندهاش وعدم تصديق عندما قرأت كلمات السيدة -عائشة- !

* * *

اليوم هو اليوم العاشر بعد موت -ندى-
ليست هذه أول صدمة تصفع حياتى.....لكنها الأقوى

زواجى من -حسين- ذنب اقترفته وأدفع ثمنه فى كل ثانية أعيشها ، كيان ثقيل جثم على حياتى وطموحاتى التى تبددت ، جعل حياتى تتلخص فقط فى المطبخ والفراش !

بدانة....شارب كث.....أنانية...سطحية !

لم ير فى حياته سوى نفسه.....وكأن الكون خلق ليكون له...ليحقق له سعادته الثمينة ! ، -ندى- كانت بقعة الضوء التى بددت الظلام القابع داخلى ، كانت نجاة ألقت الىّ بينما أنا انازع الغرق حتى أنفاسى الأخيرة ، جاءت فنفثت فى حياتى بعض الفرحة...جاءت ففتكت بحزن كاد ان يؤدى بـــى

عشرون عاماً مرت فقط ،، لأن -ندى- بـــها .. لم تزهق روحى لأن -ندى- بـها . . لم تخمد عضلة قلبى عن عمد...لأن -ندى- بـــها

عشرون عاماً ،، أطبقت ذكرياتها على روحى....بعد رحيلها....بعد قتلها..

حالت الذكريات من ابتسامة تعلو وجهى....الى دموع تغرق روحى....وتفتك بـــها

لا يعلم أحد كيف حدث هذا

فجأة هدر الصراخ.....وتعالت موجاته حتى صم الآذان ، غمرت الحركة أرجاء الشارع وجاءت نوة من التوتر أطاحت بالسكون والأمان

كنت جالسة مع -حسين- عندما بدأ الصخب يعتلى العرش ، انتفض -حسين- من مكانه وهرع الى الشرفة ليلقى نظرة على الكارثة التى نفثت نتائجها فى النفوس والشهقات ، رأيته يرمق الأسفل ثم يتراجع مذعورا....ثم يلقى نظره على السماء وأطرافه ترتجف بعنف ، ثم سمعت صوت الهدير الذى أطلقه حلقه باكيا

حاول تمالك نفسه ثم هرول الى الشارع وصراخه يسبقه حاملا اسم حبيبتى

الموقف عموما أعطانى طابع عن ما حدث ، خيل لى أن الناس أجفلت حتى جثة ابنتى عندما دوت صرختى لتهتز لها أركان الكون نفسه

لم نعلم من فعلها !

ولكن..

ولكن -ندى- تتواصل معى.....تحاول اخبارى بمن فعلها !

---

* * *

فى يوم السبت.....وبعد انتهائى من مجموعات الفتيات الثرثارات
خرجت من غرفة العمل متجها الى المطبخ الذى تعبق منه رائحة طعام فى طريقه الى الاستواء ، دلفت اليه محاولا الابتسام تخفيفا لهذا الجو الذى أصبح المنزل مفعم به....جو من التوتر والحزن والصمت.....وأنا لا أطيق هذا
كانت -عائشة- واقفة أمام الموقد ترمق الطعام بعناية....ولكن مازالت نظرات الوهن والحزن تمكث فى قرنيتها ، لم يكن هناك حل آخر سوى الكلام بنبرة جاهدت لتبدو مازحة مرحة :
--يبدو أنه سيكون هناك كثير من التلذذ أثناء الطعام....أريد أن ألتهم أصابعى اليوم-
ذهبت جملتى الى مسامعها فوجدت الصمت فعادت مرة أخرى خالية الوفاض ، بدأت فى احضار قهوتى العزيزة....بوسعى سماع صراخ خلاياى مستنجدة بقدح من الكافيين ، بعد لحظات سمعت صوت -عائشة- قادما من حلق لم يستخدم منذ أيام :
--عمى توفى أمس-
نبرتها مغمورة باليأس والحزن والاستسلام ، لا أعرف شىء عن عمها هذا سوى أنه يستحم بالأموال ! يآكلها...يشربها.....يمسح بها مؤخرته !
نطقت مرة أخرى بصوت يبكى :
--هل ربنا يعوضنى بالأموال ! ، هل هذا عدل !؟-
أعرف أنها ليست فى حالتها الطبيعية ، بادرتها بسرعة ومازلت محافظا على نبرتى المرحة :
--ماتت ندى رحمها الله....ولكننا مازلنا لم نصل لسن اليأس....أليس كذلك ؟-
قولتها وأنا أغمز فابتسمت ابتسامة على علم بزيفها
سكبت قهوتى فى القدح ورحت أستنشق رائحتها وأنا فى طريقى الى غرفة العمل.
....سأنتظر مجموعة أخرى ثرثارة بعد نصف ساعة
بالفعل بعد موت -ندى- تغيرت رؤيتى لكل شىء.....حتى الى العمل ، وقد أدركت أنى كنت أعمل من أجلها....وبعد أن ماتت لم يعد هناك دافع سوى

تمزيق حبائل الملل التى يمكنها شنقى فى أية لحظة ، فأنا لم أعتد التقاعد عن العمل....لم أعتد الراحة
خمسة وعشرون عاما قضيتهم فى التدريس.....وتقريبا أصبحت على معرفة بكل ما سيحدث كل عام
نفس الدعابات ألقيها فينفجروا الطلاب ضحكا من باب المجاملة لا أكثر ، نفس الأسئلة ونفس الاستفسارات ، هناك دائما الطالب المتحذلق الذى يحاول اقناعى بأنه نبغة وأنه أجدر طالب بمحبتى واهتمامى ، وهناك دائما الطالبة التى تحاول اقناعى بأنها أجمل ما رأيت ، وهناك نفس الامتحانات بنفس النمط ونفس الدهاليز.....تقريبا أصبحت أعيش نفس العام كل عام !
دلفت الى غرفة العمل ورحت أرشف من قدحى الساخن مغمضا العينين متناسيا همومى التى أثقلت أكتافى وروحى ، فتحت عينى لأجلس براحة على المقعد المواجه للسبورة
الـــسـبـورة !!
السبورة كانت نظيفة منذ لحظات....عندما خرجت أتجه الى المطبخ ! ، والآن أصبحت تحمل كلمة مرسومة فى منتصفها بخط أنيق معتنى به !
من كتبها ؟! متى كتبها ؟! لماذا كتبها ؟!
من
هكذا كانت تحدق الكلمة فىّ بغرابة ! ، من الطبيعى أن يغمرنى الخوف حينها.
....ولكن برغم ذلك شعرت برغبة فى عدم ازالتها.....ولا أعلم لماذا !

* * *

البارحة بينما -حسين- يغطّ فى نوم عميق...تسللت أخرج من الغرفة ، اتجهت الى غرفة -ندى- مصطحبة لوحة بيضاء وألوان الماء المغرية ، دلفت الى الغرفة لأجد كم من الطاقة السلبية يغمر الغرفة.....يغرق أركانها.....يتخلل مسافتها البينية....يطمسها طمسا
شعرت بهذا الاختناق....بشىء ما يجثم على صدرى ويعتصر حنجرتى...بل وروحى أيضـا ، كدت أن أبكى...كدت أن أصرخ...ولكنى تحاملت حتى لا يتضاعف الآلم.
.حتى لا أموت

تنفست الصعداء وحاولت تفادى هجمات عنيفة من ذكريات لم أعد احب مشاهدتها ، اتجهت ناحية الفراش ووضعت اللوحة على عمودين من الخشب. ..وبجانبها منضدة صغيرة ترقد عليها ألوان الماء الساحرة ، وجلست على المقعد المواجه للوحة

أخرست أحلام يقظتى التى تآمل فى أن أصبح أعظم فنانة تستنشق اكسجين هذا الكوكب ، آمرت جفونى بالتراخى فانطاعت وأخذت فى الانسدال بخفة

هكذا جلست منتظرة المشاهد التى ستتوالى على عقلى فى نهم....لأداعب لوحتى البيضاء بألوانى الرقيقة....فأفتح عينى لأجد أنى أتطلع على أجمل لوحة صنعتها يداى

انتـــظرت...

انتظرت كثـيرا...

انتظرت كثيرا جـــدا...

لم يأت شىء....فقط ظلام دامس بفعل اغلاقى لعيونى ! ، ظلام يسبح داخل الظلام..ليغلفهم الظلام....فيظهر فى الافق الظلام....الذى يحتوى على الظلام !

اجتاحنى اليأس فمزق داخلى ، اتجهت الى الشرفة المطلة على النيل...

وقفت اتأمل سكون الليل....تاركة رئتاى يداعبهما بعض الهواء الطلق...

راحة عظيمة تجتاحنى...عندما يدغدغنى النسيم البارد....ويتطلع علىّ النيل الرابض فى هدوء أمامى ، رحت أرمق السماء الصافية..والنجوم متناثرة فى وجهها كحب الشباب ، رحت أنظر الى النيل...وأنصت الى هدوءه الصاخب

شعرت بالحياة تغمر روحى من جديد....أغمضت عينى وفتحت ذراعى ليملؤنى هذا الهواء البارد....ليداعب أحشاء روحى...

لينعسنى !

ضرب النعاس رأسى بلطف فوجدت نفسى أغلق الشرفة وأتجه الى الفراش الذى سيحتضنى بحنان بعد لحظات ، رميت جسدى على الفراش وأعدلت وضعى... .تركت النعاس يتزاحم فى عقلى....فخفت جفونى وبدأت فى التدلى على وجهى..

لا أعرف ماذا دهانى ! ، لا أعرف ما السبب الذى جعلنى أنهض فجأة وأحدق فى اللوحة....اللوحة التى تحمل مشهدا.....رسم بألوان الماء.....رسم فى غيابى !

نعم...أقسم أنى لم أرسم شيئا ! ، احدهم رسم هذه اللوحة أثناء وجودى فى الشرفة !
لماذا ؟! كـــيف ؟!
كانت لوحة غريبة حقا تعج بالغموض
كانت فـتـــــاة..نصفها العلوى هو من يتطلع علىّ فى اللوحة...
شعرهـا غزير.....منسدل يخفى وجهها ، تمسك بوردة بيضاء...تلطخت بالدماء فحال نصفها الى اللون الأحمر ، ومن خلفها يد تشى بقوة صاحبها.....تتجه الى عنقها..وكأنها ستعتصر رقبتها...

* * *

أغلقت الملزمتين فى حنق...
لا أعلم ما الذى يجذبنى لمتابعة قراءة هذا الهــراء ! ، الروح تتواصل معهم. ..تريد اخبارهم بمن قتلها ! ، جـمـــيـــل جـدا ! ، سأقدم هذا الهبل فى التحقيقات...الماورائيات حلت القضية بشكل ممتاز ! ، نستدعى الروح المزعومة للادلاء بأقوالها
ســـخـــف !
نهضت واتجهت ناحية النافذة وفى فمى ترقد لفافة التبغ منتظرة النيران للتشبث بها حتى ينتهى ما تحتويه ، وأنا فى طريقى لاحظت لمعان شاشة هاتفى لتنم لى أن زوجتى تحاول التواصل معى ، تجاهلت لمعانه وأكملت طريقى الى الهواء المنتظر استنشاقه
بالطبع تحاول التواصل معى من جديد....تحاول اقناعى...تحاول جعل العبرات تنهال من عينيها فى محاولة بائسة لاضعافى ، بالطبع ستتوسل لى.....كما توسلت لها ، ستكاد أن تقبل قدماى.....كما كدت أن أقبل قدماها أيضا
سترجونى لكى أعيد لها ابنتنا ، والتى أحسنت استخدام سلطاتى ليكون مكانها فى حضنى
ولكن تتركنى وتدعس كرامتى بكل ما تحمله من جحود ، تنظر الى عبراتى المفروشة تحت قدمها وعلى شفتيها ابتسامتها الشيطانية الساخرة ، والآن ترجونى لأعيد لها ابنتنا

لكن لا...ابنتى مكانها فى حضنى ، لن أترك ابنتى...ولن أترك هذه تظفر بكل شىء هكذا ، ليس للانتقام....ولكنى أحب ابنتى.....وأعلم أن مصلحتها تكمن فى حياتها معى
أشعلت لفافة التبغ ليبدأ صراخها بين شفتى
* * *
نشوة أول مـرة
نبضات القلب الصاخبة.....الأطراف المرتجفة.....الأرواح الراقصة
أول مرة رآها ، شعر أن قلبه يتأجج بين ضلوعه....والدماء تهرول وتثب من هنا الى هناك ، هذا الايقاع المحبب الى ضلوعه.....وهذا الخوف اللذيذ.....وهذه الرجفة المعشوقة
فى المرة التالية اقيم الحفل مرة أخرى داخل صدره...الصخب....الهرولة والضخ العنيف ، ولكن الايقاع أخذ يضعف مرة بعد أخرى...حتى عاد الى طبيعته ، هكذا عندما رآها لم ترتجف أطرافه....لم يصرخ قلبه....لم ترقص روحه ولم تغمره السعادة
أصبحت رؤيتها أمر طبيعى لا يحدث تغيرات من أى نوع فى داخله
هكذا وثب الى مرحلة الحديث معها ، نفس الأعراض حدثت معه.....لكن أشد عنفا هذه المرة ، كاد أن يتوسل لها أن لا تصمت....تمنى أن يكون حديثهما أبدي ، كان صوتها ينفث داخله الاشارة.....الاشارة لبدء الحفل الممتع
ولكن مرة بعد أخرى أصبح الحديث معها أمر طبيعى....لا توجد اشارة من صوتها ! ، هكذا خمد الحفل المعشوق.....وهكذا حدد خطوته التالية
أول لمسة.....نتحدث هنا عن اللمسة المشروعة.....لمسة يد لا أكثر
عندما استشعر جلده لمسة يداها الناعمة ، كان هذا هو الوقت المناسب لكى تهرع الاشارة تخبر قلبه بنشر الصخب حالا...فقد اشتاقوا جميعا الى هذا الايقاع المداعب الممتع
كالعادة لم يستمر كثيرا....وأصبح ملمس يداها أمر طبيعى جدا وقد يجده مملا أيضا !
فى هذه المرحلة قد قرر أن يذوق طعم شفاهها

أول قبلة ، عندما انغمست شفتاه فى شفتاها....شعر أن هذا هو المذاق الحقيقى للسعادة ، هذه الشفاه ترسل له الحياة
وكانت هذه اشارته المفضلة ، تصريح جديد ليبدأ الصخب وترقص أحشاؤه وترتجف ضلوعه ، هكذا شعر بالدماء الساخنة تغمر جسده....وشعر بالتأجج فى داخله.....شعر أن قلبه سيثب بعد لحظات من فمه
قبلة بعد قبلة.....أصبح شىء طبيعى ، مذاق ممل ينم له عن اللاشىء ، كفت عن ارسال الاشارات.....لم تعد هناك حياة ترسلها له
هنا فطن الى الخطوة المؤجلة.....بالتأكيد خمنت ما هى !
وجد أن المعاشرة تلوح له وتخبره أن الحل معها.....السعادة معها ، الحب معها ، تخبره أن الالتحام الذى ينتظره يكمن بها ، عندما يتعروا ويلتحموا سيتهشم الحاجز الفاصل بينهما ، ستسقط القيود وسيصلوا الى قمة النشوة المنتظرة.....
هكذا يكون الحب من وجهة نظره
ان كان عليهما.....فكل منهما يريد الانغماس فى الآخر.....الغرق فى أعماق جسده
وجد أن الفراش هو عش الحب ، عليه تكمن السعادة....يكمن الحب....يكمن الالتحام والانغماس ، يريد أن يصل الى نشوة الحب الأبدية ، ستكون مشكلة اذا انتهى الأمر بالمعاشرة كما انتهى بما قبلها
مرة بعد أخرى !
وجد أن هذه هى الحقيقة ولابد الاستسلام ، لن يجد النشوة مرة أخرى ، عندما تصل الى القمة ستجد أن الخطوة التالية ليس لها وجود....اما أن تسقط الى القاع ليتشهم عنقك....واما أن تستسلم وتبقى حيث أنت
-- ما رأيك أن نستحم بدماء بعضنا ، سيصبح حبنا ليس له مثيل-
قالها وجسده مفروش على الفراش بجانبها....نظرت له فى ذهول طبعا وقالت :
--هذا هو الجنون بعينه !-
-- ألا تريدين الامتزاج ، أن نصبح شيئا واحدا-
--معنويا وليس حرفيا !-
--وان كان التحقيق الحرفى هو السبيل الوحيد لتحقيق المعنوى ؟!-
صمتت وأكملت تحديقها فى السقف ، شرد هو بعينيه وقال كأنه يكلم نفسه.

...أى يكلمها هى أيضا !
--لسنا أول بشر....ولسنا آخرهم ، نحن لا شىء....سنعيش وسنتكاثر وسنموت ، وبعد أعوام كثيرة لن تذكر أسمائنا مرة أخرى...سنختفى الى الأبد ، نحن نقطة صغيرة جدا فى بحر كبير من البشر ، هكذا تدركى أننا لا فائدة منا...وهذا العالم ليس له معنى ، نحن لا شـــىء-
بالتأكيد أدركت الآن الكم الهائل من الملاحم النفسية الكامنة فى هذا الشخص ! فى الحقيقة كانت تجد فى كلامه شىء من المنطق ، وكانت هذه بداية اقتناعها بمنطقه....بل والسعى العنيف مرة أخرى لتحقيق النشوة العظمى ، يجب أن تشبع قلبوهم بالحب قبل أن يختفيا الى الأبد....بل والموت فى سبيل ذلك !
هكذا وجدها يوما بعد أن انتهوا من معاشرتهم المملة تقول له :
--اقـتـــلـــنـــى !-
--نـــدى ! ، هل تستوعبى ما تقولينه ؟!-
* * *
ماتت لفافة التبغ فرميتها ونفضت يدى من بقاياها ، استنشقت بعض الهواء لتخفيف حدة الدخان المحترق فى حلقى
اتجهت ناحية المكتب لأكمل قراءتى للمذكرات.....لا أعرف ما سبب شغفى باكمال هذا الهراء ، يمكن أن يكون احساسى المبهم بأن هناك شخص ما أعرفه وسط سطورها ، أشعر فعلا أن هذا الكلام ليس جديدا....يندثر وسط طيات السطور أحدا ما....أعرفه كما أعرف نفسى !
فى النهاية أدلقت رؤيتى وتركيزى على الأوراق....لأكمل ما بدأته
* * *
بعد انتهاء العمل.....وانتهائى من آخر مجموعة..
جلست على مقعد أمام السبورة ورحت اتأمل هذه الكلمة المكتوبة بخط أنيق ، لا أعلم سر جاذبية هذه الكلمة لخلايا عقلى المنهك
لم تظل مجموعة صامتة..جميعهم سألوا - لماذا يا أستاذ لا تمسح هذه الكلمة ؟! -لماذا يا استاذ تشرح حولها ولا تزيلها-
استنزفت اليوم والحصص فى الرد على فضولهم المستفز

ولكن سؤالهم كان يتردد فى ذهنى أنا الآخر.....لماذا لم امسح هذه الكلمة ؟!
لماذا أشعر وكأنها تحمل صراخ يريد الهتاف فى أذنى....تريد أن تعلمنى شيئا غائبا عنى !؟
للحظات شردت والسيجارة تصرخ فى فمى....
ما لبثت أن أدركت أنى أحملق فى سقف الغرفة فوجهت نظرى مرة أخرى الى السبورة...
السبورة التى وجدتها تحمل كلمتـــيـــن هذه المـــرة !!.....اللعنة ! متى ؟! كيف ؟!
-من فـعلـهـــــا-
كتبت الكلمة الأخرى بنفس الخط الأنيـق
لوهلة شعرت بالرجفة التى اجتاحت داخلى...وظهرت اماراتها على يداى ، كنت أرتجف وكأن تيار كهربى سار فى جسدى....بدون مقاومة..
من يتسلل الى غرفة العمل وأنا بها...وبدون أن أشعر به يكتب على السبورة كلمات غامضة.....وبخط أنيق يحتاج الى وقت.....بالتأكيد ليس بشرى...
أغرقت عقلى هذه الفكرة واجتاحته بقوة ، استبد بىّ الهلع من هول الفكرة...
.من يوجد معى فى هذه الغرفة وأنا لا أراه ! ، من ينظر لى وهو يبتسم ساخرا من العرق الذى كسا وجهى حتى أخفى ملامحى.....من تروق له دقات قلبى المرتجفة.....مـــــــــن ؟!
اما أن هناك فعلا صراخ يريد أن ينفث هتافه فى أذنى ، اما أن أكون قد جننت تماما ، اما أن تكون -عائشة- هى من أصابها الخبل بعد موت ابنتنا ! ، اما أن تكون ابنتنا نفسها هى من تريد التواصل معى واخبارى بمن !.....بمن فعلها !!
أشعلت لفافة أخرى وناولتها لفمى وأخذت أسحب الأنفاس وأنفثها بغيظ.... وبخوف أيضا !
كنت أحملق فى السبورة منتظرا أن أضبط الكلمة الثالثة متلبسة ، فاتت لحظات لأدرك أن النعاس بدأ يتخلل خلايا عقلى....لا أريد النوم ، ليست طبيعتى النوم فجأة فى وسط اليوم...هذا يرجح أن احدهم يريد أن يرسلنى الى قاع النعاس حتى يتمكن من....

لم تدم أفكارى طويلا.....فجفونى لم تستطع المقاومة كثيرا واستسلمت الى قوة النوم لتتراخى وتتدلى فى سلام

* * *

عندما استيقظت كان الرسم قد أزيل تماما ، اللوحة عادت ناصعة البياض لا يلطخها أى لون.....لم يكن هناك شىء يحمل ذكريات الليلة السابقة سوى عبق الأفكار المترسب على خلايا عقلى

هنا قد اقتنعت أن ما رأيته كان كابوسا جاثما....أو حاولت أن أقتنع

نهضت كسرا واتجهت ناحية باب الغرفة لأخرج قبل أن أرمق اللوحة بنظرة أخيرة ، خرجت واتجهت الى الحمام لأصفع وجهى بالمياه لعله يغمر مسامى وينعش روحى ، تركت المياه تغرق وجهى والقطرات تتدلى منه فى كسل ، البرودة التى اجتاحت وجهى شعرتنى ببعض الراحة التى لم تدم طويلا..... فسماعى لصوت الجرس أجبرنى على ترك هذه المتعة والاتجاه لفتح الباب..... .بصراحة لم أندم أبدا !

يكفى أن أرى هذا الوجه فى الصباح....هذا يقتل أى شىء كريه مكث بى منذ أمس

كان -أشـرف- جارى يقف أمامى بعيناه الخضروان...وصدره المقسم بالعضلات الجذابة...وذراعاه المزدانين بتلك الانتفاخات الرائعة

أنسى نفسى أمام هذا الرجل....أنسى أنى متزوجة ولكن لا أنسى أنه عازب !

ولا يمكن نسيان اعجابه المندثر خلف نظراته التى يجاهد لتبدو محترمة.... وبصراحة هذا يعجبنى جدا

أتذكر هذا اليوم الذى أجبرتنى فيه الظروف -المتمثلة فى جلسة مع صديقاتى- أن اتأخر عن الموعد الملائم لعودة امرأة الى المنزل ، كان اليوم الجميل مزدحم بالفرح...ولكن أجمل مقطع فيه هو وقت صعودى الدرج ومقابلتى -أشرف- بالصدفة طبعا

بدا عليه الخجل الذى لم يمنعه من الثرثرة حتى وصلنا الى باب شقتى ، ويذكر أيضا أن خجله لم يمنعه من ان يلمس يدى لتسكوها يداه الرجولية المحببة ، من الواضح أن ذكورتهم تتغلب دائما على خجلهم.....ولكن هذا يروق لى فعلا

اكاد أقسم أنه لولا أننا وصلنا سريعا الى باب شقتى لكان أنهى المشهد بقبلة طويلة محتوية....لن نتمكن حينها من التفرقة بين فمى وفمه ، ولكن اللعنة على السرعة والثرثرة والخجل الذى يؤخر اندلاع الذكورة وطفوها على سطح الموقف

--وجدت هذا السروال ساقطا أسفل الشرفة...أظن أنه يخص أستاذ حسين-

انتشلنى من محيط أحلامى صوته السميك الذى تكدس ترددده فى اذناى ، ابتسمت له مردفة عبارة شكر قبل أن أتناول منه السروال لتتلامس أصابعنا لأشعر بأوعيتى تنتفخ من سرعة الدماء وتكدسها ، لم أنسى طبعا أن ألقى بنظرى فى اعماق عيناه الملونة

لم يدم الموقف طويلا ، فسعال هذا العجوز الذى يصعد الدرج قد مزق جمال الموقف بل وأزاله أيضا

ألقى -أشرف- التحية قبل أن يصعد الدرج بسرعة غزال ويختفى كيانه المعشوق عن مجال رؤيتى

أغلقت الباب لأغرق فى الصمت الذى غلبه صوت النبضات الهادرة خلف صدرى ، شعرت بالدماء تطمس أوعيتى حتى احمرت وجنتاى

تنهدت طلبا للهواء وأنا أتبختر متجهة الى غرفة -ندى- ، فقد جاء لـى الوحى أخيرا.....قد أملأ -ياسر- فراغات كثيرة تكدس بها احساسى الفنى.....قد بدد الظلام الذى كان قد ملأ جوف روحى..وعقلى...

ما ان دخلت الغرفة حتى توقف قلبى ووثب ليصبح أسفل قدمى ! ، انقطعت أنفاسى وتصلبت دمائى بداخل عروقى !

اللـوحـــة ! ، اللـــوحـــة اللعـــينة !

أصبحت تحمل مشهدا آخـر ! ، مـــتى ؟! كـــيف ؟!

أحدهم أحكم استغلال غيابى ولطخ اللوحة بالألوان ليغمرها هذا المشهد !

كـــانت نفس الفتاة التى رسمت ليلة أمـــس

مازال شعرها منسدل على وجهها...ويغطيه بالكامل

كانت ملقاة على الأرض الغارقة فى التراب.....كانت ضلوعها مهشمة صانعة تلك الفجوة .....وكانت يدها اليمنى قابضة على ورقة.....ورقة مثنية تلطخت

* * *

كنت أقود سيارتى فى هذا الطريق الذى تولى القمر مهمة اضائته....
كان ضوء القمر يغمر الظلام ليبدده....والأشجار تتنفس على جوانبه لترسل لك بعض الحياة.....والنجوم تظهر فى الافق منيرة متناثرة بكثرة حتى طمست السماء...فأصبحت السماء ماهى الا تجمع كبير جدا من النجوم...
كان بالحق مشهد بانورامى يكتب فيه آلاف الكتب والقصائد...
عكر صفاء ذهنى هذا العطل الذى قتل الموتور فتراخت قواه...
وقفت بى السيارة فى قارعة الطريق....طالبة لبنزين والا لن تكمل بى طريقى الجميل..
تدليت منها أنظر حولى فى حيرة ، مستحيل وجود كائن حى الآن فى هذا الطريق الذى يهدر صمته حتى ينعس أعصابك ، نظرت الى السيارة الرابضة فى حنق.... وجدتها مطرقة غير قادرة على الحراك....
جلست بجانبها ورحت أرمق المشهد الخلاب الذى أحاط بى ليبدد همومى ويغلف الموقف البائس الواقع فيه الآن..
صوت صــراخ طفلة...!!
نهضت فجأة كالملدوع انظر حولى فى رعب وذهول..
من أين جاء هذا الصوت ! ، صوت صراخ طفلة صغيرة...تصرخ فى هلع وكأن أحدهم يمزقها تمزيقا ، لم تبخل علىّ فأصدرت صراخها مرة أخرى....لأدرك الاتجاه.
...انه يأتى من داخل هذا الظلام القابع على جانب الطريق خلف الأشجــار !
اتجهت بسرعة ناحية المصدر...
تخطيت الأشجار واقتحمت الظلام فى تحدى وأذنى تستنجد بأى صوت آخر ينتشلنى من الظلام الذى ملأ عينى..
بالفعل أصدر صراخ الطفلة الهالع مرة أخرى..
اتجهت محددا طريقى حتى وصلت الى شجرة كبيرة شامخة...تتوسط الأشجار العالية التى تناثرت فى المكان ، لمحت هذا الشىء الرابض أمام الشجرة المذكورة.
..شىء صغير....يرقد فى سكون....وقد كست الدماء بقعة الأرض التى يعلوهـا

هرعت أعدو أسابق الزمن متحديا أى قاعدة فيزيائية حتى وصلت الى..... اليــها
كانت -ندى- ! ، أحدهم هشم ضلوع صدرها ليلقى نظرة الى داخلها ، فأخرج قلبها وكأنه يبحث عن شىء.....انهمرت الدموع من عينى حتى غسلت دماء الجثة...جثة ابنتى !
هنا رأيت....رأيت -ندى- أيضا ! ، واقفة أمام سبورة معلقة على الشجرة الضخمة. ...تكتب شىء ما بخط أنيق وبهدوء مخيف ، كانت ترتدى نفس الثوب التى قتلت به...والدماء مازالت تلطخه ، تنحت جانبا بعد أن انهت كتابتها....لترينى ماذا فعلت..
-من قتلنى.....عائشة-
قرأت فى ذهول ما كتبته ابنتى الحبيبة !
عائشة !، زوجتى ؟! .....زوجتى هى من قتلت ابنتى !
نظرت حينها الى الجثة التى أمسك بها.....لأجدها -عائشة-.....تنظر لى مبستمة. ..متحدية.....وقحة !!
اكتفيت من هذا فلفظنى النوم بعنف على شاطىء الواقع ، نهضت مفزوعا ألهث بشدة والعرق الساخن يتناثر على وجهى كحمم بركانية كثيفة
استنزفت لحظات لأستوعب الفارق بين العالمين وأدرك أن ليس هناك فارق أصلا....فهذه الجملة المرسومة تقول هكذا
وجدت نفسى أحملق فى هذه الجملة المكتوبة على السبورة بأناقة
-من قتلنى.....عائشة-
أجفلت فور رؤيتى لها وزاد ايقاع لهاثى الهادر ، زادت اللافا تكاثفا على سطح وجهى المندثر خلف المياه ، وبدأت الأفكار تصرخ كقرع طبول داخل رأسى ، ارتعش حلقى فلم تندلع الجمل من فمى بسهولة....كنت أريد أن أطلق تلك الصرخة المنحشرة فى حلقى
ما معنى هذا ؟! ، من قتل ابنتى....-عائشة- !
هــذا جــنــون !!

* * *

أغلقت الملزمتين عندما وجدت من يطرق باب مكتبى منتظرا اذنى بالدخول ، لا أحتاج الى التخمين....سيدلف العسكرى الى المكتب بعد أن يسمع صوتى يسمح له بالدخول ، سيلقى التحية ويقول بطريقة آلية باردة أنها تقف بالخارج وتريد الدخول ، سأفكر هنيهة مصطنعا التردد قبل أن أومأ له أن يدخلها ، سيخرج تاركا خلفه وجهى يحمل هذه الابتسامة المنتصرة والتى سأحاول قتلها قبل أن تدلف هى الى المكتب....وبعدها سيبدأ العرض المنتظر

--ادخل-

قلتها ليدخل العسكرى ويلقى التحية ويقول بالطريقة السابق ذكرها :

--مدام لمياء تريد مقابلتك يا سيدى-

فكرت هنيهة لأتركها بالخارج قليلا لتدرك ترددى اتجاه هذه المقابلة....لكن فى النهاية أومأت له أن يدعها تدخل ، خرج العسكرى بعد أن القى التحية الواجبة لتدخل هى بعده بثوان

ان سألتنى كيف عرفت كل هذا سأقول أن المكان كا يعبق برائحتها منذ لحظات ، وبالتأكيد لن تأتى الى هنا لشرب العصير والثرثرة.....بل من أجل العرض المعروف والمنتظر

--أهلا بكِ مدام لمياء....تفضلى-

أردفتها بطريقة باردة تحرق الأعصاب ، جلست وقد لاحظت جهدها لتخفى غضبها وتحبس عبراتها

--أريد ابنتى يا محمود-

ها هو العرض قد بدء

ركزت نظراتى التى تكسوها الثلوج على عينيها لأحث هذه العبرات اللعينة بالاندلاق ، لكنها متماسكة بطريقة يشهد لها ، تركت ابتسامتى تعتلى وجهى بسخرية قبل أن أحدق بقرنـيتها وأنا أقول :

--وأنا لا أريد أن أسمع هذا الطلب مرة أخرى

انتى التى تركتينى وليس أنا....انتى من دعس بشر على سنين عشقنا وزواجنا.. .توهجت نظراتك والتمع بريقها المجنون وانتِ تتأملين تلألأ عينى واغروراقها ، هل خيل لكِ عقلك أنى ساترك ابنتى ببساطة مع امرأة حاقدة ومجنونة مثلك ،

هل تحلمين بأن تنام فى حضنك مرة أخرى....أقول لكِ أن تنسى هذا بتاتا ، ولا تخطِ عتبة هذا المكتب مرة أخرى ، اما أن تعودى لصوابك وتعتذرى لى عن كل ما فعلتيه وحينها سأفكر فى طلبك واما أن تختفى عن ناظرى أبدا-
بالطبع هذا مستحيل....ان سقطت السماء على الأرض وأصبحا شيئا واحدا لن تعتذر هذه المريضة عن أفعالها ، وكأنها ولدت ملاكا يبرز من ابطها الأجنحة البيضاء...لا تخطىء أبدا ولا تعتذر أبدا
بصراحة ندمت عن ما اندلع من فمى من كلمات ، ليس خوفا على شعورها بالطبع..فلتذهب الى الجحيم ، ولكن بالتأكيد كشفت كلماتى عن مدى ما يختلج داخلى من ضعف وحزن....وأنا أكره هذا بقوة
--اذن هذا آخر ما لديك ؟!-
--انتى تعرفين أنه آخر ما لدى فعلا !-
أخيرا استسلمت أعصابها وانهالت العبرات من عينيها ، هذا أشعرنى بتحسن بالغ نهضت بعنف واتجهت نحو الباب بسرعة لتذهب قبل أن تتكاثف العبرات ويصبح الحزن غزير يقتلها ذلا وضعفا
هنا تركت لشفاهى العنان لتتحرك بسرعة صانعة ابتسامة الانتصار ، أخذت نفسا طويلا لأملأ جوفى بالراحة ، من سيرانى سيظن أنى أصبحت لواء من فرط الفرحة التى نفثت امارتها على تقاسيم وجهى
هكذا يكون العقاب المثالى لامرأة كهذه....الذل ثم الذل ثم الذل.....ومن بعده الذل !
ألا ترى أن كل هذا مبتذلا ؟!
دائما جريمة القتل العنيفة فى ابطها مذكرات غامضة مريبة ، وهناك الشرطى التى تتكدس حياته بالمشاكل والتى دائما تكون بسبب زوجته الساخطة ، ولكن لسبب ما ينسى الشرطى همومه ومشاكله وكل ما يجعل حياته مثل قعر جهنم ويفضل الانفراد بقضيته كنوع من الهروب من الواقع أو اخلاصا مبالغ فيه لعمله وشرف مهنته !
لا أعلم هل السينما دائما تعرض هذا لأنه واقع أم أن الخيال السينمائى يطفو على حياتى بشكل ملحوظ

أكره الدراما المبتذلة عندما تجتاح الواقع !

* * *

وقف أمامها فى ثبات عصبى وأخذ يتأمل الحياة وهى تدب فى جسدها وأنفاسها المتلاحقة وصوت قلبها الذى غمر الصمت وأباده ، هذه هى لحظة بلوغ القمة. ..وسيأتى بعدها مرحلة السقوط وتهشم الأعناق ، يعرف هذا جيدا ولكنه يتناساه بشكل مؤقت....لا يوجد ما سيمنعه من أن يذوق طعم النشوة....لا يوجد من يمنعه من أن ينغمس بها ويغرق فى أعماق حبها ، سيصبح حبهما شىء خارق للعادة....ليس أفلاطونى...بل أقوى بكثير

على ضياء الشموع شرع فى تحضير الطقوس

بعد أن نثر الشموع فى كل مكان فى الحمام وطمس حوض الاستحمام بالمياه الدافئة ، وضع صورتها بين شمعتين فى مواجهة الحوض واللهب أخذ يتراقص حولها وينعكس على تقاسيمها المصورة

خلعت ملابسها واتجهت بخطوات مرتجفة الى الحوض لتنغمس فيه ، أعقبها هو الآخر وخلع ملابسه ولم ينقطع تأمله لها لحظة ، قبض على هذا السكين الحاد واتجه ناحيتها لتتناوله منه وجسدها يرتجف فى أعالى قمة الخوف ، وضعت السكين على ساعدها قاصدة الوريد البائس الذى سيتقىء دماء بعد لحظات جاثمة

--لماذا لم تسألنى كيف عرفتِ ؟!-

كان يجلس على مقعد بجانب الحوض وهو يتأملها مدركا أنه التأمل الأخير للحياة وهى تتراقص على جسدها وتنعكس على ملامحها ، نظر لها عندما سمع صوتها الغائص فى الرعب....قال فى غباء :

--عرفتِ ماذا ؟!-

--عرفتِ أنك تريد قتلى....تريد أن تستحم فى دمائى وتنام بها ، لأنه لم يعد هناك طريقة لممارسة الحب تفى بالغرض-

كان يظن أن هذه فكرتها ، أنها أيضا تطمح الى النشوة الكبرى والعلاقة المجنونة ولهذا كان سينفذ بدون عذاب ضمير !

--كيف عرفتِ ؟!-

قالها فى ذهول لترد هى قائلة :
--من المذكرات-
صمتت منتظرة كلامه الذى آتى صامتا فأردفت :
-- مذكراتك....قرآتها يوما فوجدت مراحل علاقتنا التى تتزايد وتقوى وتضعف وتتذبذب ، أدركت كم تتعذب منذ أن عرفتنى وتتخبط ليبقى حبنا قائما أبدا ، ولكننا وصلنا لنهاية المطاف لأقرأ رغبتك المكبوتة فى الاستحمام بدمائى وكم هذا سيشعرك بالراحة والنشوى المؤقتة والقصيرة جدا...ولكن قوية -
لأول مرة ترى عينيه تبتل بالعبرات التى يجاهد لتبقى حيث هى ، تنهد ونظر الى داخل روحها وقال :
--لماذا لم تتركينى ؟! ، لماذا تفعلى ذلك ؟!-
--لأنى مثلك ، لن أستطيع أن اتركك وان فعلت سأموت حتما....ولكن سأموت قهرا ، وان بقينا هكذا سنكون مدركين لعدم وجود نشوة أخرى أو اتصال أقوى وستغدو علاقتنا عذاب ينهش فى أرواحنا حتى نموت أيضا ، أما ما نفعله الآن هو المعنى الحقيقى ل(أحبك حتى الموت) ونحن نحققه هنا بكامل ارادتنا ، سنموت من أجلنا-
--وكيف تثقِ بموتى ؟!-
--مدركة تماما أنك لن تستطيع التنفس طلاما أنفاسك لا تخالط أنفاسى-
--انتِ مجنونة -
--لأنى أعشق مجنون-
قالت جملتها الأخيرة ثم وجهت نظرها الى السكين المسنود على ساعدها وهو ينظر الى وريدها فى شغف ، بعد لحظات صمت قبضت بقوة على السكين قبل أن تسحبه بشدة لينقطع وريدها بعنف وتندلق الدماء بسرعة كبيرة وتمتزج بمياه الحوض
تآوهات خفيفة أصدرتها بوهن مع تقلصات وجهها من الألم الحاد ، كان ينظر هو الى هذا المشهد ولا يعرف هل يسارع باسعافها أم ينتظر أن تخمد ليغطس فى دمائها ، اكتفى فقط بالتأمل ينتظر السكون ليحل على جسدها ووجهها
كانت هى مستسلمة تماما وهى ترى دمائها تنسكب بعنف من جسدها

وتختلط بمياه الحوض الذى حال لونها الى الأحمر ، لاحظت أيضا نظراته المترددة بين جسدها المحتضر والاسعافات.....ولكن هيهات الاسعافات الآن ، قررت أن تخفف عنه قليلا فراحت تبتسم له بصعوبة
حتى خمد جسدها تماما والابتسامة لم تفارق شفاهها
فاتت لحظات لا يمكن وصفها
امتزج الحب بالندم بالخوف بالذعر....بالشهوة !
هكذا وجد نفسه يغوص فى حوض الاستحمام المطموس بدمائها ، وجد نفسه يسبح بدمائها ويغسل جسده بها...بل وهناك بعض القطرات التى تسللت الى فمه متجهة الى معدته بسهولة !
كان جسدها متوارى خلف هذه الستارة الحمراء السميكة ، مد يده حتى وجد شعرها اللزج المختلط بالدماء ، سحب رأسها بلطف خارج الدماء ليرى الموت يقطن بوجهها وملامحها التى كانت تملؤها الحياة صخبا منذ لحظات ، لم يستطع منع نفسه من تقبيلها واحتضانها....يريد أن يشعر بما كان يشعر به.
...يريد أن يقام الحفل مرة أخرى وينتشر الصخب وينتهى السكون....يريد أن ينصت الى نبضات قلبه الهادرة
كان قلبه يهدر فعلا بايقاع صاخب...ولكنه كان يعرف أن هذا ليس بسبب النشوة التى لم تتحقق ! ، كان يعرف أن هذا بسبب ألم حاد يمزق قلبه لتتعالى نبضاته الصارخة...كيف سمح بأن يصل الى كل هذا !.....والكارثة أن النشوة لم تتحقق !
فطن الى هذه الحقيقة المريرة ليجد نفسه يهرول ناحية غرفة الخردوات ، هذه الغرفة التى يحتفظ فيها بكل شىء لا يستعمله كثيرا.....آن الأوان لفتحها لتتنفس قليلا
دلف الى الغرفة ليستقبله الغبار الكثيف الساخط ، مشى وسط الضباب المشبع بالغبار حتى وصل اليه
استهلك لحظات لتنظيفه وللتأكد أنه مازال يعمل ثم اتجه ناحية الحمام ليجد أنها مازالت مغموسة داخل دمائها.....شعر بأن قلبه ينشطر وهو يضع السلك ليوصل الكهرباء الى....الى المنشار الآلى

هل خمنت ماذا ينوى أن يفعل ؟!
دعك من التفاصيل ، يكفِ لك أن تعرف أنه وجد نفسه فى النهاية يمسك قلبها ويلوكه فى متعة وجسده تكسوه الدماء حتى اختفت ملامحه ، وفى حوض الاستحمام ترقد جثة -ندى- وقد تدلت أحشاؤها خارج جسدها....وهناك فى ضلوعها توجد هذه الفجوة التى ترشدك أن القلب لم يعد بمكانه.....لم يعد موجود فى الجثة أصلا !

* * *

للانتصار أضراره أيضــا !
فبعد ذهاب -لمياء- تبقت على قشرة مخى بعض عبراتها وتوسلاتها ! ، أنا أحب الانتصار وأحب أن استرد حقى.....ولكنى أحبها أيضا !
فى الماضى كنت أقسم لها أنى على استعداد لتدمير الكون كله لترتسم ابتسامتها على شفتاها ، والآن عبراتها تنهطل بحرقة بسببى أنا ! ، لا أستطيع أن استوعب هذا
ولكن لكل فعل رد فعل.....وهذا هو رد فعلى لا أكثر
دعك من هذه العقد النفسية ، لنكمل المذكرات ونرى ما حدث مع -أستاذ حسين ومدام عائشة-
فتحت الملزمتين من جديد وسكبت تركيزى ورؤيتى على أوراقهما مرة أخرى

* * *

ذهبت لأفتح الباب بعد أن سمعت أحدهم يقرع الجرس دون توقف !
فتحت الباب لأجد هذا البائس ينظر لى بوجه شاحب تتطلع منه عبارات حزن شديد ، وجسد هزيل تبرز عظامه بعنف ومنظر غير مهندم ينم عن عدم اهتمامه...بأى شىء يتعلق بنفسه !
كان ينظر لى ويرتجف وعيناه لا تكف عن التردد بين هنا وهناك ، نظرت له بتفحص وأنا أهز له رأسى ليعرفنى بنفسه ، أدركنى فقال لى بصوت متذبذب لم يستعمل منذ دهور :
--البقاء لله-
فهمته فأزحت له مسافة ليدلف الى الشقة بوهن ، كانت -عائشة- جالسة

تتفحصه بذهول وهو يدخل ويجلس على المقعد المواجه لها ، جلست بجانبها وقلت له :
--هل كنت تعرف ندى ؟-
تحركت شفاهه حركة غير ملحوظة لترسم ابتسامة باهتة ، تنهد وقال :
--نعم.....كنت أعرفها جيدا-
--كنت صديقها ؟!-
--نعم....كنا أفضل أصدقاء-
هززت رأسى متفهما لنخلد جميعا الى الصمت ، ظل هو يجوب بنظره المكان وكأنه يبحث عن شيء ما ليقول فى النهاية :
--المكان مازال يعبق برائحتها وروحها !-
ما انتهى من جملته حتى سمعت صوت -عائشة- تتنهد فى ألم
--سأعد لك القهوة-
قالتها واتجهت بسرعة ناحية المطبخ ، كان هو مازال يتحلى بالصمت والتأمل لكل تفصيلة فى المنزل....وكأنه يبحث عن -ندى- شخصيا ، عيناه لا تقول أنها كانت مجرد صديقة له ، هذا الشغف الذى يملؤه وهو يتأمل الشقة ونبرته الحانية وهو يتكلم عنها يعرفنى أنهم لم يكونوا مجرد أصدقاء
--سأعود حالا-
ألقيتها بسرعة وأنا أتجه ناحية غرفة العمل وأشرع فى اشعال لفافة تبغ
أخمدت نشاطى العملى ونشرت الفرحة والصخب بين المجموعات حتى أجد حلا فى الكارثة التى رسمت أمامى على السبورة ، حتى انى أصبحت أغلق الغرفة بالمفتاح وأمنع -عائشة- من أن تلقى نظرة على عتبتها !
دلفت الى الغرفة وأغلقت الباب خلفى ، جلست على هذا المقعد المواجه للسبورة وأخذت اتأمل الكلمات مرة أخرى.....وأخيرة
-من قتلنى.....عائشة-

* * *

بعد أن أعددت القهوة لغريب الأطوار الجالس بالصالة خرجت له ووضعتها أمامه ليبدأ فى رشفها بيدين يتراقصان ارتجافا ، تركته ينعم بقهوته وذهبت

لأبحث عن -حسين- لأعلم أنه معتكف فى غرفة عمله -والتى لسبب ما أصبح لا يفارقها-لينجز أعمالا ما ، اتجهت بنظرى ناحية هذا الشاب الغريب لأجده يغتصب القدح بنهم.....كيف يتركنى -حسين- مع شاب غريب الأطوار كهذا ؟!
--اذهبى ان أردتى....سأنهى قهوتى وأذهب فورا-
بصراحة أشعرنى بأطنان من الخجل تنصب علىّ ، حاولت ان أبتسم له ولا أعلم ان كنت نجحت أو فشلت ، ثم اتجهت الى غرفتى.....غرفة -ندى-
أول ما رمقته أثناء دخولى...اللوحة....اللوحة التى رسم عليها رسمة أخرى.!!!!!!
أغلقت الباب بسرعة وجلست على الفراش اتأمل التطورات....نفس الرسمة..
فــتاة ملقاة على الأرض المشبعة بالتراب...
شعرها يغطى وجهها.....وضلوعها مفتوحة على مصرعيها.....تقبض بيدها على ورقة..
الورقة !!!!!!
الورقة المثنية.....أصبحت مفتوحة تكشف عن ما تحتويه...
اسم....مكتوب بها اسم.....كتب بالدم....بدم ابنتى !!!
كانت الورقة ملطخة بالدماء ولكن الاسم واضح وضوح الشمس فى ذروة الظهر !
-حـــسين عبد العظـــيم-
هذا ما كتب بدماء الفتاة على الورقة..!!
* * *
جلست على مقعد بواجهة السبورة ورحت اتأمل الكلمات...
-من قتلنى.....عائشة-
اذن.....-عائشة- الساقطة...هى من قتلت ابنتى !
توالت الأفكار والذكريات فى املاء عقلى حتى الطمس..
أذكر هذا اليوم الذى سبق قتلها بعدة أيــام...
أذكر المشاجرة السيئة التى وقعت بينهم..
أذكر الصفعة التى دوت على وجه ابنتى....الصفعة التى تلقتها من يد -عائشة-
أذكر قول -ندى- يومـــهـــا- :

--ليتك لستِ والدتى-
قالتها واتجهت تعدو الى غرفتها..
أذكر نظرة -عائشة- التى امتلأت بالغضب...نظرة ثاقبة..لو كانت مادية لحرقت الفتاة حرقــا.....تذكرت كل هذا.!
كيف لم أفكر فى هذا من قبل...
عمها الثرى توفى ليترك لها أبحار من الأموال....ستغوص بها حتى نهاية عمرها..
أرادت أن تفتك بنا لتهرب مع عشيقها -الذى لا أعرفه- فقتلت ابنتنا الوحيدة..
.وليس مستحيل أنها تخطط لقتلى انا الآخر...
الساقطة !
تريد أن تقتلنا لتنعم هى مع عشيقها ومع أموال عمها التى لا نهاية لها.....
اللعنة على هذه القلوب...
هكذا استطعت ان أحدد طريقى..
سأقتلها.....قبل أن تقتلنى هى..
سأثأر لابنتى.....سأقتلها حتى لا تنعم بأموال لا تستحقها....
سأقتلها لاننى أحب -ندى-...
سأقتلها..

* * *

الآن فهمت كل شىء
وتذكرت كل شــىء
فى هذا اليوم الذى سبق موتها بعام...
لسبب ما تشاجرت معه ، أذكر ردودها الحادة التى أثقبت قلبه الواهن....أذكر نظرته الشيطانية....وبريقها المجنون الذى تلألأ..
أذكر أنها افرغت غضبها فى اعصابه..
--أكرهــك-
هكذا قالتها بصرخة باستطاعتى أن أخمن انها أخذت تتردد فى مسامعه حتى دبت الأفكار المجنونة عقله حتى تكدس بـهــا
-الفتاة التى تغضب والدها...التى تعصى والدها....التى تكره والدها.....يجب

أن يتدلى حشوها الى الخارج-
بالتأكيد هكذا فكر.....وبطريقة ما نفذ خطته الوحشية المريضة...
الأفكار المجنونة ليس لأجل المشاجرة فقط...
بالتأكيد هناك سبب لا أعرف كنهه..
ولكن ما اعرفه انه فقد عقله تمام....أصبح مجنون يقبض على سيفه ويطيح به لتطير الرقاب..
اللعنة !
أنا قلت له على أموال عمى ! ، بالتأكيد يخطط الآن لكيفية قتلى....سيفتك بى لينعم بأموالى ! ، سيغوص داخلى وينتزع أحشائى..
يجب أن أقتله...
يجب أن أقتله لأن هذا هو الصواب..
سأتمكن من الزواج مرة أخرى....ممن يريده قلبى..
سأتمكن من الثأر لابنتى الحبيبة....
سأتمكن من استعادة روحى التى زهقت....وحياتى التى تبددت...
لأننى أحــب -ندى-... سأقتله...
سأقتله..

* * *

سقط القدح من يده ليتدلى محتواه ويفرش الأرضية بالقهوة الساخنة ، لم يستطع التحمل.....لم يستطع الصمود أكثر من هذا ، وجد نفسه يسقط عقب القدح مباشرة ويجهش بالبكاء بطريقة عنيفة ، الزمن يتوقف....لا يريد المرور فى سلام !
--سأنفذ كل ما تريدينه لكن أرجوكِ لا تبكى...أرجووووكِ يا ندى لا تبكى-
هذا ما كان يقوله من بين بكاؤه !
بعد أن قتلها والتهم قلبها ظن أن هذا هو نهاية المطاف وأن هكذا تنتهى القصة ، استهلك أيامه الأخيرة فى انتظار التترات لا أكثر....ولكن اتضح أنه كان مخطىء ، لا وجود للتترات والقصة لم تنتهى بعد !
بدأت تتواصل معه ! ، نعم...-ندى- تتواصل معه تريد أن تخبره بما تحتاجه

منه !
تعرف نقطة ضعفه جيدا وتضغط عليها بدون رحمة ، نقطة ضعفه هو بكاؤها ، لا يستطيع التحمل عندما يراها تبكى فى ضعف...هذا شىء يدفعه الى الانتحار والذهاب لها ليهدأ من روعها ، كيف تبكِ عزيزته بدون أن تنغمس فى أحضانه وتطربها دقات قلبه الحانية
كان الطلب غير متوقع بالنسبة له ، تريده أن يقتل والديها ! لأنها تريدهم بجانبها
تبكِ له وتتوسل كثيرا حتى أصبحت أحلامه عبارة عن عرض كبير لعبراتها وضعفها....بل ويقظته أيضا ، جعلته يقتلها والآن تطلب منه أن يقتل والديها.. بالتأكيد الطلب الثانى سيكون قتله لنفسه ، ولكنه لا يمانع....بل يآمل أن تطلب منه هذا الطلب لتكون الدفعة المشجعة له....من فوق القمة !
--سأنـــفذ....سأفعـــلها-
كان يصرخ ويبكى ويرتجف دون توقف
فى هذه اللحظات وجد -حسين- والدها يفتح باب غرفته وهو يقبض بيده على زجاجة تهشمت مقدمتها صانعة حدود حادة تصلح كاداة قتل قاسية
لم يعره -حسين- أى اهتمام.....بل من الواضح أنه نسى وجوده أصلا
وجده يقبض على هذه الزجاجة ويهرع الى غرفة مدام -عائشة- ووجهه غارق فى العرق يكسوه اللون الأحمر وكأن دماء جسده كله تصاعدت الى رأسه حتى كادت أن تنفجر
ركل -حسين- باب الغرفة بعنف لينفتح الأخير بقوة كاشفا له المدام -عائشة- الواقفة بثبات أمام اللوحة والتى التفتت له ببرود وهى تتأمل الزجاجة فى يده وتبتسم !
تقدم -حسين- بغضب ناحيتها والسباب يندلع من فمه وعيناه تلفظ الشرر ، رفع بيده الزجاجة بقوة وشرع يهبط بها على -عائشة- التى حالت نظرتها الى الفزع وادراك الموقف
سقطت الجثة ممزقة العنق تتدفق منها الدماء بعنف
شهقت -عائشة- واندلعت من فمها الصرخات ومن عيناها العبرات ، فالجثة

التى سقطت كانت جثة -حسين- !
ما ان سقطت جثته حتى وجدت نفسها تتطلع على هذا الوجه الشاحب وعلى عينان يتطاير منهما ال.... ! ، نظرته كانت خليط غريب من الشفقة والحزن والخوف والشر !
كان هذا الشاب الزاعم أنه صديق -ندى- ، يقبض بيده على سكين حاد وينظر لها نظرة أفهمتها أن الدور عليها ، لكن لماذا ؟!
التفتت الى اللوحة القابعة ورائها لتجد البياض يحدق بها فى تحدى ، لا توجد رسمة !! لا توجد رسمة !!!
التفتت له لتجد السكين يندفع ناحية رأسها بقوة ويخترق جبينها بعنف حتى شعرت بنصله يحتضن عقلها ، بدأت الدماء الساخنة تنسل من رأسها لتغرق وجهها وروحها....ورأت -ندى- تلوح لها فى الافق
فى اللحظة التالية كان الظلام هو المسيطر الوحيد

* * *

--قتلوا بعضهم !-
تسللت الجملة من حلقى ليرميها لسانى الى الفراغ !
اذن كل هذا الوقت المهدور قادنى الى الى اغلاق القضية بدون متهم ! ، نعم فانا أثق أننا اذا مشينا وراء الحقائق المادية سنجد أنفسنا امام الحقيقة المكتوبة فى المذكرات...قتلوا بعضهم ! ولا وجود للمحكمة ولا المتهمين.....بالتأكيد لن اتهم الروح العائدة وأزجها بالسجن ، اذن لا وجود للدراما والغموض فى هذه القصة
تعالت الدقات على الباب ليدخل -عادل- ويقول :
--هناك من يريد مقابلتك يا سيدى-
هززت رأسى بمعنى دعه يدخل ، لأجد فى اللحظة التالية هذا البائس يدلف الى المكتب وعيناه مثبتتان علىّ ، نظرت له لأحثه على الكلام ، لأسمع صوته المبحوح يقول :
--أنا من قتل أستاذ حسين ومدام عائشة-
وقعت حروف كلماته الثقيلة على رأسى لأشعر بعلامات التعجب تنكز جمجمتى ، انحشرت الكلمات فى حلقى وارتخى لسانى خلف أسنانى

جلس -عادل- على مقعد بجانب المكتب واعتلت وجهه ابتسامة انتصار وهو يقول لى :
--اذن أغلقت القضية يا سيدى -
--لماذا قتلتهم ؟!-
لمحت نظرة التعجب التى ملأت عين -عادل- فتجاهلتها وأكلمت سكب النظرات فى عينان هذا الشاب ، نظر لى نظرة صامتة وقال :
--ندى من طلبت منى هذا ، أرادتهم معها..وانا لا أستطيع رفض طلب لها ، قتلتهم لأنى احب ندى-
اللعنة على -ندى- وعلى روحها !
اذن -حسين- أراد قتل -عائشة- لانه يحب -ندى- ، و-عائشة- ارادت قتل -حسين- لأنها تحب -ندى- ، وهذا المعتوه قتلهما لأنه يحب -ندى- !
وأنا سأقتله الآن وأمثل بجثته لأنى أحب -ندى- !!!
--لا داعِ للأسئلة يا سيدى ان سمحت لى...انتهت القضية-
فى ظروف أخرى كنت سأغرز كلماتى فى لحمه لالقاؤه للأوامر ! ، ولكنه على حق فى رأيى
لا تظن أنى سأحاول فهم كل شىء وأبحث فى جوف هذه القضية لأخرج لاهثا وفى يدى جميع الحقائق.....لست من هذا الطراز بتاتا ، انتهت القضيــة !
دعك من كل هذا !
أظن أنى عرفت ماذا يجب أن افعل مع زوجتى وابنتى.....لأنى أحبهما حقا أحبهما

* * *

لقد استنزفت -آيـة- الأيام الماضية فى محاولات فاشلة فى قتل -نـبيـل- ! ، فجاة أدركت أن حياتها تكرست فى حب -نبيل- ثم الانتقام منه ثم قتله !
فى كل مرة تفعل شيئا ما لينقطع الاكسجين عن خلاياه ليعانى بعض اللحظات من صعوبة التنفس ثم تجد مجموعة من الأطباء والممرضات يحاصرون فراشه ويعيدون اليه الحياة والمعاناة
لقد اكتفت من هذا ، أرادت أن تنتقم ولكن هذا مبالغ فيه ، لقد لمحت عبراته

تنهال من عينيه المغلقتين والاحمرار يكسو وجهه وكأن الدماء لطخت جدر أوعيته ، انه يتعذب ، ان الألم يخلو من هنا ليتصاعد من هناك ، ان الحب ينهش قلبه ! ، انه يصلى عذاب أبدى لا ينتهى ، والأطباء يخبروننى وعائلته أن هناك امل فى عودته....بالطبع يجب أن يقولوا هذا والأموال حاضرة ولا تكف عن دخول جيبوهم

يجب أن أعثر على الغجرية ، يجب أن أوقف هذا السخف ، انه يموت ولكن الأنفاس مازالت تمارس رحلاتها فى انفه ، يجب أن اعثر عليها

كفى هذا !

* * *

- قـرابـيـن الـحـب -

تمشوا ويداهم تقبض على بعضها...الأمطار تنهطل عليهم بغزارة....والنسيم البارد يتحد مع شظايا الأمطار ليداعب وجههم ، شعرها الأسود كان يتدلى مبتلا. ..وقطرات المياه تناثرت على وجهها الأبيض....مع عيونها الخضراء أصبح لها طابع الملائكة....

أما هو فكان شعره كسائل أسود يكسو جبهته....نظرته زائغة تجوب الشارع الخالى من حوله فى خوف ، ينظر لها كل حين ويبتسم فى حنان....ثم يتابع مراقبته للشارع..

كانوا قد اقتربوا كثيرا من العمارة التى تقطن هى بها

خطواتهم زادت حماسة...جعلتهم يسرعوا الخطى أكثر

لم تتمن هى أكثر من ذلك ، أمطار هاطلة.....ونسيم بارد....وشاب وسيم يعشقها. ...ومشهدهم الرومانسى تحت الأمطار

لم تطل المدة كى تتعرف عليه أكثر ، ولكنه من طراز اجتماعى تشعر بأنك تعرفه من زمن ، وهذا ما حدث لها منذ رؤيتها له.....رعشة مكثفة اجتاحت جسدها. ..ونبضات عالية هدرت كالطبول بين ضلوعها.....وكاريزما عالية الجودة لفظته داخل قلبها

يومها جلس بجانبها فى الحانة بدون كلمات ، أخذ يتأمل شدقيها وهى تتجرع كأسها فى هدوء ، لم تستطع طرده....كان قلبها سيثب وراءه متوسلا أن يعود ، لم تبين اندهاشها.....فقط استمرت فى سكب خمرها وعيناه تسلب عقلها وجميع مناطقها الحسية ، اختفت الموجودات وحل العدم والظلام...بينما ظل هو يتوهج فى الأفق حتى امتلأ عقلها بمشهده ، رعشة شفتيها جعلت الكلام يتناثر وينسكب خارج فمها بدون صوت ، وقلبها المتواثب سحق تساؤلات عدة ، ظل الاوكسيتوسين يفرز بوفرة حتى طمس عروقها وعبق به دماؤها...

--من انت ؟!-
بعناء نطقتها.....لم تدرِ ثقل لسانها بسبب الخمر أو الاوكسيتوسين الغارق فى خلاياها ، ظل يتأملها لحظات اضافية.....قبل أن يتنحنح ويردف فى هدوء عشقته..
--كنت سأسألك نفس السؤال ، من انتِ ؟!-
عقدت حاجبيها وفى دلال قالت :
--انت من جئت وجلست بجانبى فى برود...اذن عليك انت الاجابة اولا !-
--لا أعلم ما انسانى نفسى فى هذه اللحظات ! ، هل الخمر التى لا أشربها....أم هذا الوجه الساطع الذى اتطلع عليه الآن-
بالكاد سيطرت على نفسها من تقبيله....لولا احترامها لنفسها لكانت اغتصبته بدون رحمة.....اللعنة على الاحترام فى بعض الأحيان ! ، لم تنطق...فقط اكتفت بالتأمل ورعشة سرت فى جسدها
بينما ظل هو يجوب داخل عيونها الخضراء....أردف بهدوء :
--منذ فترة لم أحسبها وأنا اجلس هنا أتأملك ، لم يكن لى عمل سوى تفاصيلك التى جذبتنى.....ووجهك الفاتن....وردود أفعالك التى حفظتها ، حتى ضحكتك. ..رنينها يدوى فى أذانى طيلة الوقت....ملأتى عيونى فأصبحت لا أرى غيرك ، أصبحت استنشقك لأستطيع البقاء حيا ، أصبحتِ بمثابة اوكسيجينى-
كانت تعلم كل هذا !
لاحظت كل هذا منذ عدة أيام.....وظهر هذا بوضوح على خط سيرها ، كانت تأتى للحانة مع أصدقائها يوم فى الأسبوع.....حال الى أربعة أيام بمفردها
كلام تفتقر له مع صوت رخيم هادىء.....حث عضلة قلبها على الرقص بايقاع نبضات مدمدمة....ظهرت حبات العرق على جبينها ، وريقها الذى أغرق حلقها فذابت فيه الكلمات
جاهدت حتى لفظت جملتها :
--وماذا تتمنى أن يحدث الأن.....الموقف سخيف حقا !-
كانت تكذب جدا ! ، لا يمكن لهذه الكلمات أن تخرج مع عيون يطل منها الانبهار...ووجه متوتر أغرقه العرق ، ستلعن نفسها مدى الحياة لو كلماتها

بصقته من جانبها الآن !
--أتــمنـــاكِ-
كانت رصاصة الرحمة على عنادها ، أطلقت حينها لابتسامتها العنان حتى ملأت وجهها ، أصاب الاحمرار وجنتيها...والخجل يسبح فى عيونها ، أطرقت خجلا فمد يده ليصلح زوايا نظراتها لتصوب اليه
--انتى اكسير الحياة بالنسبة لى.....لا تقتلينني-
منذ هذه اللحظة وهى لا تدرى بنفسها.....فقط ملقاة فى حضنه حتى عبقت ضلوعه برائحتها
فجأة أقلعت عن الخمر....وعن أصدقاء سوء وسفالة كانت تغزو حياتها الكئيبة ، واظبت على الصلاة واقتربت الى خالقها بدرجة لم تتخيلها يوما ، شعرت بانفاسه تخلتج فى صدرها لتمحو أى نجاسة كانت موجودة يوما.....أصبحت أفضل أصبحوا أمام مدخل العمارة...
دلفوا الى الداخل ويداهم لم تفارق بعضها ، ألقوا نفسهم داخل المصعد مستنجدين ببعض الدفء ، لفظهم المصعد أمام باب شقتها ، أولجت المفتاح وفتحت الباب.....ليكشف عن شقة فاخرة مزدانة بأيات من القرآن وأدعية مرطبة للقلب....وبقايا لرائحة بخور كان يرسل مسكه فى لحظة ما
دلفوا الى الدخل طاردين بقايا البرد من عظامهم ، خلع سترته الجلدية ووضعها على حافة مقعد ، ثم أخذ يتأمل الشقة بابتسامة....
اقترب منها وسار بيده على شعرها الأسود لتتدلى منه قطرات المياه الباردة...
--لم أعتقد أن شقتك بهذا الجمال !-
زادت نبضاتها فى هذه اللحظات.....تنفست الصعداء وقالت بهدوء مرتجف :
--لماذا اتيت الى هنا ؟!-
حملق بها مستغربا السؤال ، أدركته فقالت :
--أليس وجودنا هنا خطأ ؟! هذا ما تعلمته منك -
-- هذا ما تعلمتيه منى ! ، اذن ثقى أنى لن أضرك يوما-
أدركت أن التوتر بدأ فى طمس الحوار بينهم.....تهدئة للجو قالت متجهة الى المطبخ..

--شاى اخضر أليس كذلك ؟ ، هذا وقته حتما-
ابتسم من قلبه وقال :
--وهو كذلك-
اتجهت الى المطبخ لتحضر المطلوب...
وضعت الماء على النار وأحضرت الأقداح.....وقفت بجانب الماء منتظرة الصريخ الذى سيعلن عن الغليان .
سرحت بخيالها قليلا.....أخذها الى يوم الزفاف الذى سيخلق لها حياة تمنتها كثيرا...ونادت بها فى سجودها بخشوع ، لا تستطيع تصديق أن هذا الكيان الذى عشقته سيصبح زوجا لها يوما ، لا تستطيع تصديق أن هناك فراش واحد سيجمعها به يوما....ستغرق فى أحضانه لتستطيع الانصات الى هدير قلبه الناطق باسمها ، ستلتف أعمارهم وحياتهم....ستلفظ علاقتهم الطاهرة روح عابقة بحبهم...تحمل اسمه وحذافيره التى تعشقها
رقص قلبها لينشر الصخب وسط ضلوعها ، شعرت بعبق الفكرة يترسب على ضلوعها وعلى قشرة مخها....فأخذت رعشة لطيفة تداعب داخلها....وسعادة تغمر أحشاء روحها
انتشلها من أحلام يقظتها الموقد الصارخ معلنا أن غليان المياه بلغ ذروته...
رفعته من على النار لتسكب ما به فى القدح الحامل لشاى أخضر يعيد الحياة لعظام قتلها البرد ، اكتمل تحضير الشاى....فاحت رائحته فملأت أنفها.... استنشقتها بمتعة قبل أن تحمل الأقداح واتجهت الى الصالة الموجود بها حبيبها الأول.....والأخير..
عندما وصلت الى الصالة كان هو واقف فى منتصفها والدموع تنهال من ثقب ما فى عينيه ، أغرقت وجهه وروحه.....نظرت هى فى ذهول ولم تعط اهتمام للأقداح التى سقطت لينسكب منها المشروب الساخن وتنفرش به الأرض من تحتها ، ظلت تنظر له والدموع أخذت طريقها للخروج من عينيها الخضراء ، لم تراه من قبل يبكى بحرقة هكذا ، لم تر من قبل دموعه تنسكب من عينيه التى تعشقها بهذه الدرجة ، لم تراه ضعيف من قبل !
هرعت نحوه بلهفة والدموع مازالت تندلق منها....

-- ماذا بك ؟! ماذا حدث ؟! علاء !! ماذا حدث ؟!!!-
نظر لها بعيونه المبتلة....بحزن شديد قال :
--نسمة.....أرجو منك أن تتأكدى أنه رغما عنى.....قسما بالله رغما عنى-
صمتت منتظرة من بين نحيبه بعض الشرح.....ولكنه لم يتكلم ! ، فقط ازدادت دموعه وهو يخرج هذا السكين الصغير من جيب بنطاله....ثم ينظر لها بشفقة ومازالت الدموع متوفرة.....قبض على كتفها بقوة.....وبيد مرتجفة.....مرر السكين من تحت ذقنها.....لتبصق العروق الدماء فى وجهه فتتناثر على تقاسيمه بينما سقطت هى بعنقها المذبوح تحت قدمه.....أخذ جسدها يرتجف..... ينتفض بقوة ، وقد لاحظ تجمع هائل من التساؤلات التى تكدست فى عيونها ، جسدها ينتفض بشدة وهو يعافر مع الروح التى تجاهد لتخرج من جسد تهجره الدماء بسرعة ، نحيبها يدوى بقوة وانفاسها المتقطعة مازالت تخرج بصعوبة....وشراييها تسكب ما تحتويه من حياة ، ظلت تنظر له غير مدركة لما حدث الآن...وهو ظل يبكى بحرقة أكثر وهو يراقب جسدها المرتجف المنتفض. .....حتى لفظت نفسها الأخير.....وخمد جسدها تماما

* * *

خرجت -جنينة- من خيمتها تتمشى على البساط الأسود المفروش أمام مدخل الخيمة الموجسة..وسط المصابيح المتناثرة حول البساط ، ككل شىء حولها أسود. ...ستائر الخيمة والبساط أمامها والمنضدة التى تعلو البساط والمقاعد القطنية التى تتناثر حول المنضدة فى ترتيب ، تظهر لك هذه الخيمة الغريبة كحسنة سوداء فى هذا الوجه الرملى الصافى.....نعم....الخيمة تقع فى عرض صحراء ميتة ! ، ان سألت لماذا امرأة وحيدة اسمها -جنينة- تجلس بمفردها فى خيمة سوداء غريبة الشكل فى عرض الصحراء الصامتة ! ، سأقول لك انك أحمق كبير..... المشهد يشرح نفسه بلا شك..
جاءت من العدم هذه السيارة الفاخرة....شاهرة مصابيحها فى وجه ظلام دامس يحتل الصحراء ، أبطئت من سرعتها تدريجيا وأخمدت مصابيحها لتتوقف أمام هذه الخيمة ، تدلى من السيارة هذا الشاب الوسيم بوجه ممتعض تظهر عليه حفريات بكاء حارق ، اتجه بصمت ناحية حقيبة السيارة وفتحها بهدوء.....مد

يده داخلها ليخرجها بشيء ثقيل جاهد فى سحبه حتى سقط على الأرض الرملية ، أغلق الحقيبة ومسك مرة أخرى بهذا الشيء وسحبه حتى أصبح أمام -جنينة- مباشرة.....كانت تجلس تراقب كل هذا وشبح ابتسامة وجد مكانه على وجهها المجعد ، تنحنح الشاب قائلا :

--القربان-

ابتسمت -جنينة- وهى تنظر الى جثة هذه الفتاة....والى عنقها مفكك الأوصال ، أخذت نفسا عميقا أخرجته بسؤالها :

--عذراء؟-

هز الشاب رأسه أن -نعم-

--اذن...هيا نبدأ العمل.....اجلس أمامى حتى أنتهى-

جلس -علاء- بواجهتها...تتوسطهم المنضدة ، كعادتها...أخرجت ثلاثة أوراق بيضاء من مكان ما....وبخط أنيق تكتب سطورها التى تحقق المراد...والتى لم يحاول هو معرفتها طوال السنوات السابقة ، مصحوبة بتلاوتها آيات من سورة الجن...ولكن معكوسة الحروف لغرض ما

انتهت من أول ورقة.....مدت بها يدها ناحية -علاء- وفى حدة هزت رأسها ناحية جثة -نسمة- ، تناول -علاء- الورقة ومد يده ناحية عنق الجثة ليبلل الورقة بدماء مازالت لزجة ، كلما نظر للجثة واجهته عين -نسمة- البريئة تنظر له بوهن !

أعاد الورق الدامية ل-جنينة- ، لتتناولها هى ثم تضع فى قلبها فلفل أسود وتثنيها عدة ثنايات حتى تكورت ، ثم تلقيها فى الفحم المشتعل بجانبها.....ككل مرة !

أثناء تآكل الورقة فوق الفحم الملتهب....كانت تحضر الورقة الثانية بنفس الخطوات ، ثم تتلو آيات من سورة الجن معكوسة الحروف باستاذية.....ثم تضعها فى دماء القربان....ثم تضع فى قلبها الفلفل الأسود وتلقيها فى الفحم لكى يستنزفها حتى التآكل

مدت -جنينة- يدها ل-علاء- بالورقة الثالثة والتى يعلم هو أنها الأخيرة ، تناولها فى صمت...وقبل أن يقربها بدماء من كانت حبيبته منذ لحظات.....نظر لأول

مرة داخل الورقة ، ليرى السطور الأنيقة تغمغم ب- بايكموش طقليوش، أجب بملكوت جلجميش كشطليخ ، أجب بحق مادعوتك به انت وأعوانك وخدامك وهيجوا فريدة بنت سعاد الى علاء ابن كوثر
احرقوا قلبها وعقلها وجسدها وروحانيتها واسلبوا ارادتها بمحبته حتى لا تتوانى لحظة عنه ولا تسمع الا له
الوحا العجل الساعة-
كانت -جنينة- تنظر له بتمعن وتلاحظ وقع الكلمات الغريب على وجهه الذى امتقع وحال أصفر ، احتشد العرق على جبينه فى ثورة....وارتجفت أطرافه وتعالت صرخات قلبه ، وكأنه لم يكن يدرك ما يفعله من البداية
--ننهى عملنا ؟!-
قالتها فى حدة...فاستشعر برودة الصحراء لأول مرة وهو يغمس الورقة فى دماء -نسمة- ويناولها الى الشيطانة الجالسة أمامه ، تناولتها منه ونفذت المذكور وألقتها فى الفحم ليلتهمها فى نهم
بمجرد أن أنهى الفحم وليمته..نظرت -جنينة- الى -علاء- المنصت الى دقات قلبه...وقالت فى بهجة
-- هنيئا لك العام الجديد....لقد انتهينا-
وكأنه كان ينتظر تلك الكلمات منذ زمن ، ما لبثت أن أنهت كلامها حتى وجدته ينهض كالملدوع ويسرع الخطى ناحية سيارته ، دسّ نفسه بها وأدار المحرك.. تحرك بالسيارة مسرعا حتى غاصت فى الظلام عندما ابتعد عن الخيمة وأضوائها كان ضوء القمر الكهل لا يقوى على تبديد الكثير من هذا الظلام..فأضاء -علاء- مصابيح سيارته لتتخلل هذا السواد ويبتهج الطريق قليلا
يكفيه هذا الظلام الذى غمر روحه منذ أن قرأ كلمات العزيمة القذرة
وجد هاتفه يبعث الاضاءة حاملا اسم -فريدة- ، اذن العزيمة قد بدأت عملها حينها بدأت موجة من الذكريات تهاجم عقله المنهك....وبدأت العبرات تجد طريقها خارج عينيه...وبدأ قلبه نوبة التمزق السنوية ، سؤال يلح عليه ولا يجد له اجابة مقنعة...سؤال ينزف له قلبه دماء...وعينينه دموعا....وعقله ذكريات
-هل تستحق النتيجة كل هذا ؟!-

---

* * *

أولج -علاء- المفتاح فى الباب قبل أن يدلف الى شقته فى هدوء ، كانت الهموم تثقل خطواته وقلبه يتواثب حتى هشت ضلوعه ، طمس المشهد خلايا عقله فلم يعد يرى أمامه سوى عنقها المذبوح وموجات دماؤها الثائرة ونظرتها المتسائلة الواهنة ، -نسمة- ليست أول شخص يلقى حتفه على يده....ولكن الألم كان أشد هذه المرة ، حبها الصادق...وحنانها الغامر....وحلقها المعسول... .وبرائتها الطفولية....ونظرتها الساحرة ، كل هذه عناصر جعلت لحظة التنفيذ تمر كدهور....كل هذا جعله يفكر جديا فى ترك الأمر برمته وليحظى بما تبقى من انسانيته

ولكنه أزاح كل هذا جانبا عندما رأى هذا الاستقبال الذى يفتح له ذراعيه...

كانت الشموع تتناثر فى أنحاء الشقة مرسلة ضوءها فى كل صوب ، هذا الضوء النارى الهادىء أعطى البيت طابع الكهوف ، وسط هذه الأضواء لمح هذا العشاء الملوكى الذى يفترش المنضدة وسط النيران الهادئة ، شبح ابتسامة أخذ حيز من فمه....لم يرهق لسانه ، فقط اكتفى بالوقوف متظاهرا بالذهول منتظرا خروجها ، لم يطل انتظاره فبعد لحظات من دخوله وجدها تخرج من غرفتهم مرتدية فستان أبيض كالعروس ، دنت منه وابتسامة خجل تعلو شفتيها ، نظر لها فى اقتضاب وقال :

--لا أعلم أن هذه مراسم الطلاق بالنسبة لكِ !-

بنفس الابتسامة طبعت قبلتها على شفتيه....وغاصت بعدها فى حضنه قائلة :

--آسفة.....لا أعلم ماذا يصيبنى حقا....ولكنى آسفة-

تنفس الصعداء استعدادا للرد....ولكن قبل أن يفتح فمه كانت قد رفعت اصبعها ناحية فمها بمعنى -اخرس-.....وقالت فى هدوء :

--لا أريد أن تتكلم...أعلم أنك غاضب ولكنى سأنسيك غضبك هذه الليلة ، هل ترى الشموع والعشاء....كل هذا كلام فارغ ، أجواء تقليدية لا أحبها..ولكنى أردت أن أبهرك لا أكثر.....لا أريد العشاء ولا أريدك أن تتكلم....أريد حبك فقط-

انتهت من كلامها لتغمس نفسها فى أحضانه مرة أخرى ، حينها اندثرت -نسمة-

فى ثنايا عقله كمن قبلها ، نسى كل شىء عن هذه الليلة.....الدماء الثائرة... .والأنفاس المتلاحقة....والظلام الدامس....والبرد المرجف....والصحراء الميتة..... والجثة....والقربان..و-جنينة- ، اكتفى فقط بالنتيجة.....والغرق فى حبها حتى الأعماق

فى هذه اللحظات انسكبت رؤيته على هذه الصورة المعلقة على الحائط ، دمدم قلبه كالرعد وسط ضلوعه...وتعالى صوت أنفاسه السريعة.....وارتجفت أطرافه لهول الذكريات

صورة حفل زفافهم اللعين

* * *

أرادت أن يكون حفل زفافهم فى الخلاء

حديقة واسعة مشبعة بالخضرة.....سماء صافية تتطلع عليهم فى سعادة.... وهواء نقى يشاركهم سعادتهم

ولكن صخب الحفل والأهالى والأصدقاء وصوت الأغانى المنتشر خرب عليهم هذه الطبيعة ، دائما وجودهم المزحم يفتك بجمال المنظر ولحظة الانفراد به

بعد انتهائهم من الرقص الرتيب الممل الروتينى ، والتهبت أيدى الحاضرين من التصفيق...عادوا الى مقاعدهم لاهثين ، فيوم الزفاف يتكدس فيه الارهاق واللهاث والتوتر...كيف ستنتظر منه أداء بعد كل هذا !

ظل الحفل قائم والملـل طابق ، ولكنه على الأقل أصبح زوجها رسمى..وحبيبها أمام كل البشر ، برغم كل ما حدث له فى الآونة الأخيرة ولكن المراد تم.....وهذا يمحو كل مصيبة حدثت له

كان جالسا فى اطمئنان وسعادة لا توصف.....الفتاة التى كانت تمقته وآخر ما تتمناه أن تراه صدفة ، أصبحت الآن زوجته.....أصبحت تتنفسه وحياتها مستحيلة بدونه ، هذه الحقيقة تنفث فى صدره الفرح بكميات كبيرة.....هذه الحقيقة كانت هذيانه فى لحظة انفراده بأحلام يقظته

تنفس الصعداء فى راحة فباغته صوتها وهى تقول فى ابتسامة :

--أجمل شىء....أن القمر مكتمل ، وكأنه يعبر عن فرحتنا الآن....أليس كذلك ؟-

لم يرد.....غاصت أفكاره فى شىء آخر ، فتحت عيناه على مصرعيها وأخذت نوة

من الأفكار تهاجم عقله بشدة ، رقصت أطرافه ارتجافا وانقشعت ابتسامته ليحل هذا الاقتضاب الذى طبق على وجهه
القمر مكتمل ! ، اللعنة !
هذا موعد معرفة قربان هذه السنة....ان فات اليوم بدون أن يعرف فلن يعرف أبدا ، وفى نهاية السنة سيلقى الكذب حتفه وستتطلع عليه الحقيقة فى شماتة ،سيخسر كل ما كسبه ان لم يعرف ، سيخسرها.....اذن سيخسر حياته ونفسه كما خسر دينه
نعم هو لا يهذى
العام الماضى قالت له هذه المرآة المخيفة بنبرتها الموجسة أن سادس اكتمال للقمر سيكون يوم معرفته بنوع القربان الجديد
ولكن كيف سيترك الحفل ويترك زوجته أمام الحاضرين ويفر الى الصحراء !
يجب أن يتصرف.....حتما سيجد طريقة

* * *

--شكرا لكِ يا مدام بثينة-
ابتسمت له -بثينة- فى خبث وقالت :
--لم تقل لى....لماذا تريد الذهاب الى عراف ؟!-
نظر لها فى حدة وقال :
--انتِ قدمتى لى خدمة وأنا أشكرك على هذا ! ، هذا كل ما أستطيع قوله لكِ. ...شكرا-
ابتسمت فى خبث وهو يغادر المبنى متجها الى سيارته....بالتأكيد سيذهب الى -جنينة- الآن
دلفت الى شقتها وحالة من الراحة اجتاحت داخلها ، الكل كان يتهمها بالجنون والجهل والكفر ، كانت تمقت النظرة الممتعضة التى تلاحقها من أعين سكان العمارة...وخاصة طلاب الجامعات بمن فيهم هذا الوغد -علاء- ، كانت النظرات تبصق عليها وجلسات النميمة تقام كلما مرت من أمام السكان ، الأوغاد جعلوها تكره نفسها....والهواجس تمزقها ، الكل برىء....جميعهم ملائكة وأنا الساقطة الكافرة الوحيدة ، ولكنها كانت تخرس هذه الهواجس وتفكر بشكل منطقى....

..تقريبا هذا الموضوع الوحيد الذى أزاحت للمنطق مكانا فيه ، الجميع مذنب.
..والناس شياطين...وليست هناك طريقة لطمس خانات النقص فى نفسهم سوى الانشغال بكفر الآخر وعيوب الآخر ، كلما ينظروا لى ويتعمقوا فى تحليل حياتى يشعروا بالرضا عن نفسهم أكثر...وأنهم ملائكة وأنا الشيطانة ، ولكن فى الحقيقة جميع البشر أوغاد ينتقضونك لأنهم ان لم يفعلوا ستبرز عيوبهم أمام أعينهم ، ينتقضونك ليشعروا بالرضا عن أنفسهم.....ينتقضونك لأنه ليس هناك حل آخر ولكن -علاء- هذا لن يستطيع أن ينتقدها بعد الآن...فى الواقع لن يستطيع أن ينظر لها حتى !

هكذا يكون الانتصار

كان -علاء- قد أصبح أمام هذه الخيمة السوداء الغريبة ، كان يتوقع قبو يعج بالبخور والأصوات الخافتة وعراف لا يكف عن ترديد كلمات يجهد لتبدو غامضة ! ، كل هذا كان سيكون أفضل من خيمة سوداء فى عرض الصحراء وامرآة غريبة تسمى -جنينة- تجلس فى هدوء وتتطلع عليه بابتسامة موجسة دعس بكل ما يحمل من قوة على كرامته عندما ذهب الى -بثينة- هذه ، خاصة نظرتها له عندما طلب عنوان عراف...وابتسامتها الخبيثة التى علت شفتيها وكأنها تقول -هآنتذا يا مدعى الثقافة والعلم والتحضر.....أيها اللعين !-

أخرس كل هذه الأصوات الصاخبة فى عقله واتجه ناحية -جنينة- فى هدوء ، مازالت تنظر له وهذه الابتسامة الغريبة تسكن شفتيها فى اصرار ، كان هناك مقعد قطنى بواجهتها....جلس عليه فى خوف ومسامه تبصق العرق حتى غرق وجهه فيه.....رعشة لا ارادية أخذت تتسلى بشفتيه ليندلق الكلام منه متبعثرا ، كانت -جنينة- مازالت بنفس المنظر.....تحدج فيه بطريقة مخيفة....وابتسامتها لا تزال تعلو شفتيها

تنحنح بعد فترة وقال :

--أنا.....أ.....أحــب-

قاطعته فى هدوء وثقة قائلة :

--تحب فتاة-

استطرد كلامه بنفس النبرة المرتجفة :

--وهى لا.....-
قاطعته ثانية قائلة :
--لا تحبك-
--اســـمـــــ.....-
قاطعته مرة أخرى بنفس الطريقة :
--فريدة عبد الجواد-
لم يندهش....لم يفزع وينظر لها فى ذهول قائلا -كيف عرفتى ؟!- ، فى الحقيقة هذا سؤال أبله ! ، ولكنه كان يجلس فى خجل أنساه خوفه.....اذن هو كالكتاب المفتوح أمامها وهى تقرأ منه وتأكل الفشار فى تسلية ! ، مسح العرق المحتشد على جبينه وقال :
--أريد أنـــ...-
--تعمل لها عمل ، فتغدو مياهها التى تعطيها الحياة....وبدونك تموت من الظمأ-
أومأ برأسه أن -نعم- فى خجل
فلتت نظرتها الى السماء فى شرود..وقالت فى هدوء موجس :
--لا تصلح هذه الليلة.....سوف تأتى فى سادس اكتمال للقمر لأخبرك بالمطلوب. .....مع السلامة-
ابتلع طردها له ونهض بسرعة واتجه الى سيارته ، أدار المحرك وشق الظلام والأمان يزداد فى صدره تدريجيا
لن يخبر أحد بهذا....سينفذ المطلوب مهما كان ، المهم أن تحبه...أن تشعر به ، أن يكون مياهها التى تعطيها الحياة وبدونه تموت من الظمأ

* * *

أخمد محرك سيارته عندما أصبح أمام الخيمة السوداء..
كالعادة وجدها تجلس خارج الخيمة على المقعد القطنى فى انتظاره...وهناك على شفتيها ترقد هذه الابتسامة التى لا يعرف لها سبب
كان مازال ببذلة الحفل.....وهذا آثار اتساع ابتسامتها أكثر وهى تقول له بنبرتها الهادئة بينما هو يخطو ناحيتها فى قلق..

--مبارك لك ياعريس-
جلس بواجهتها وحاول الابتسام...لكنه لم يفلح ، قالت هى فى هدوئها المعتاد :
--طلبت أن تذهب مع زوجتك الى المنزل لأنك مستعجل....ثم دسست لها منوم فى كوب العصير وهرولت آتيا الى هنا...تاركها غافية على حافة الفراش-
كالعادة لم يصيبه الذهول أو الفزع.....فقط ابتسم ابتسامة بمعنى -نعم- ، ولكن الفضول جعل لسانه يلفظ سؤاله :
--انتِ تعرفِ الغيب !-
بابتسامة جانبية قالت :
--أنا أعرف ما حدث.....وليس ما سيحدث-
أومأ برأسه بمعنى -مفهوم-
كان يريد أن ينتهى بسرعة قبل أن تستيقظ -فريدة- ، لم يضع لها الكثير من المنوم...فهو يريدها مستيقظة بعد لحظات ليست طويلة
ان استيقظت سيكون فى مأزق حقيقى
تركتك يا زوجتى ليلة زفافنا غافية وتسللت الى الصحراء لأقابل عرافة تدعى -جنية- لأن موعدى معها يكون يوم اكتمال القمر لأعرف القربان الذى سأقدمه لكى تستمر حياتنا هادئة هنيئة.....عرفتى كم أحبك ؟!
تبا لها ان لم تقتله فى لحظتها وتمثل بجثته !
--صبى-
انتشلته من أفكاره بكلمتها هذه....فنظر لها فى غباء لتعيد كلامها :
--يريد صبى لم يبلغ بعد ، صبى لم يصل لسن البلوغ ، وأهم شىء الدماء....لابد من وجود الدماء.....الكثير منها-
يكاد يقسم أنها كانت تتكلم فى انتشاء حقيقى ! ، هذه المرآة عينيها فقط تثير التوجس...ما بالك بنبرتها وشكلها وكلامها !
--حسنا-
أصدرها بارتجاف
قالت فى حزم يتعارض مع ابتسامتها :
--اذهــب الآن.....أراك بعد عدة أشهر.....ومعك القربان-

بمجرد انتهائها من نطق حرف ال-نون- ، كان فى اللحظة التالية داخل سيارته التى أصدر محركها صراخا فتك بصمت الصحراء ، احتضن الظلام حتى خرج الى المدينة وصخبها ، وبعد لحظات ليست قصيرة أصبح داخل شقته فى أمان.. ..نسبيا

* * *

أخذ -مطاوع- يسلك الطرق فى ارهاق ، الشمس ساطعة تشعر بأنها لحظات وستحتضن الجميع.....كما أن العمل اليوم كان زائدا عن حده ، كل هذا جعله لا يكمل خطوتين بدون أن يمسح حبات العرق المتجمعة على جبينه ، ولكنه كلما أدرك أنه قارب على الوصول...اتسعت ابتسامته وارتاح قلبه

سلك هذا الزقاق....ثم هذه الحارة.....ثم هذا الشارع

أخيرا وجده فى مجال رؤيته.....كان يقف أمام سيارته مستندا على الكبود وفى فمه لفافة تبغ يرسل بها سحب الدخان الكثيفة التى تجمعت حوله ليتخيلها هالة تحيط به ، ابتسم فى راحة.....بعض الخطوات السريعة أذابت المسافة بينهم ليصبح أمامه مباشرة

--كيف حالك يا صاحبى ؟-

قالها -مطاوع- ليبستم له صاحبه هذا ويردف وهو يصعد سيارته :

--بخير.....هيا اصعد -

صعد -مطاوع- الى السيارة مستنجدا بتكييفها ، الهواء البارد داخلها ينفث له الحياة من جديد ، ولكنه يحتاج الى شىء يمحو وجوده المادى على الأرض.....هذا الشىء مع صديقه

صديقه ! ، هذا شاب عامل -شقيان- لا يستطيع التقاط أنفاسه طوال النهار من شدة العمل وغلاظة صاحب العمل ، أذابت الشمس جلده... والشقاء أدى بروحه... والمعاناة أرهقت قلبه ، فتكت المسؤلية وعاتقها بشبابه ومرحه

دائما القصة هكذا.....يموت الأب تاركا للابن ثروة عظيمة مكونة من أم قعيدة وأخت تنتظر الزواج فى شغف وأخ صغير وغد لا يكف عن سحب الأموال لأجل الجامعة...والدخان !

اذن كيف لهذا -الغلبان- أن يكون له صديق من الطبقة الراقية ! أو العالية

بصراحة هو لا يعرف الاجابة..
ولكنه وجد نفسه فجأة أصبح صديقه ، منذ أن صدمه بالسيارة صدمة خفيفة واصطحبه الى المستشفى ثم الى المطعم ثم الى الكافتريا.....كان يوم حظه فعلا توالت الخروجات والسهرات ، كان طيب فعلا....لا يتركه يمد يده فى جيبه الفارغ ليدفع مليما ، كان سعيدا جدا ولكنه دوما كان يبحث عن الاجابة.... وكلما سأله أجابه بابتسامة :
--الصداقة ليس لها سبب...شىء لا نتحكم فيه...كيمياء بين القلوب ، لهذا لا تستفسر لماذا تحب هذا ولماذا هذا يحبك-
ولكنه لم يبتلع هذه الاجابة بسذاجة.....وظل يبحث عن السبب ، خطر له خاطر منحرف.....وظل ينتظر اليوم الذى سيجد فيه صديقه يرتدى عباءة وينام على السرير طالبا منه أن....
دعك من هذا ! ، تبا للأفلام ولما فعلته بعقول الشباب
توقفت السيارة لاهثة أمام احدى المبانى ، ترجل -مطاوع- مع صديقه مقتحمين البناية....ألقوا نفسهم فى المصعد حتى الطابق المراد ، اتجهوا ناحية الشقة ودلفوا اليها ليلقى -مطاوع- نفسه على هذه الأريكة المريحة
نظر -مطاوع- الى صديقه نظرة استغاثة ، أدركه فاتجه ناحية احدى الغرف ليعود منها بعد لحظات حاملا الحياة فى طبق
لا ليس طعام.....بل هروين
نعم....هذا الشاب المكافح الطيب أصبح مدمن بفضل هذا الصديق الخدوم !
جلس بواجهته وأعطى له الطبق....ليدس وجهه فيه ليغمر الهروين خلاياه ودمائه ، ارتاحت أعضاؤه وارتخت قواه.....وأخذ الانتشاء يغمر داخله
فى لحظة ينسى والدته وعائلته ومسؤليته.....ويسبح فى عالم من العدم والراحة ، يغدو شخص آخر غير -مطاوع- ، شخص أكتافه غير مثقولة بالمسؤليات...وروحه حرة تحلق فى غياهب شىء آخر ليس فيه عمل ولا ارهاق ولا عرق يغرق فيه لحظات من الغياب حتى استدرك الواقع غيابة وانتشله بعنف ليلفظ على سطحه مرة أخرى ، شعر بثقل أكتافه مرة أخرى فنهض فى ضيق وقال فى حنق :
--يجب أن أذهب الآن ياعلاء ، لدى عائلة يجب أن اعتنى بها-

ابتسم -علاء- ابتسامة باهتة.....تنفس بعمق قبل أن يقول بهدوء:
--أشعر برغبة عارمة فى الاجابة على سؤالك الملح-
برغم أن -مطاوع- قد فاق من ما يسكن دمائه فى اصرار...ولكن هناك بعض حفريات الغياب فى لبّ وعيه ، ولكن هذه الجملة كانت استحضرت تركيزه بالكامل.....أخيرا سيعرف الاجابة...والتى تجاهلها لفترة ليحصل على هيروينه ليستمر انتاجه فى الحياة حتى لو بصورة طفيفة
نظر الى -علاء- فى شغف منتظرا بقية كلامه ، محوت هذه الابتسامة على وجه -علاء- وهو يردف :
--جعلتك صديقى....لأنى أريد قتلك ، بمعنى أصح.....أحتاج الى قتلك-
لفظ -مطاوع- هذه الضحكة الصاخبة والتى أعقبها بسعال عنيف ، ثم استدرك حقيقة أنه لم يعرف الاجابة.....نظر له فى مقت وقال :
--لا أحب المزاح فى هذا الموضوع....برغم أن الدعابة جيدة-
احتدت نبرة -علاء- وهو يقول :
--أنا لا أمزح-
هنا قد أدرك أن هناك شىء غريب يحدث...هناك فى صدر -علاء- يكمن شىء لا يعرف كنهه ، ارتجفت نبرته وهو يقول :
--ماذا ؟! ، ماذا ؟!!-
--أنا مضطر الى قتلك...لأقدمك قربان من أجل حبى....من أجل أن تحبنى الفتاة التى أعشقها ، جعلتك صديقى المؤقت حتى تأتى اللحظة الحاسمة...وجعلتك تدمن الهروين حتى تصبح تحت طوعى ، ولا تفر منى أو تسألنى كثيرا وينمو فى داخلك شك نحوى.....الآن أنا آسف ، مضطر أن أقتلك-
اجتاح الفزع وجه -مطاوع- الذى كان ينظر فى غباء عندما أخرج -علاء- هذا السكين الصغير الحاد ، نظر فى عدم فهم بينما يتقدم منه -علاء- فى هدوء
كادت تلك الصرخة أن تفلت من فم -مطاوع- لولا السكين الذى غمد بقوة فى عنقه ، انفجرت الدماء بعنف بينما جسده يلتوى ويرتجف ويركل بقدمه ، سقط أرضا والدماء مازالت تهجر جسده بلا رجعة والفحيح ينطلق من فمه ليتبعثر فى الفراغ

بعد لحظات أصبح جثة تنظر فى غباء وذهول وتساؤل
بعد لحظات أصبحت أكتافه بدون أثقال
نظر -علاء- الى جثة صديقه البرىء.....لا يصدق أنه فعل هذا ، لا يصدق مدى بشاعة ما أوصله له حبه ل-فريدة-
سقط على الأرض والعبرات تندلق بوفرة من عينيه ، تعالى نحيبه واشتد تمزق داخله ، انه يخسر بلا شك.....يتحول الى مسخ بمرور الوقت ، من أجل ماذا ؟! ، هه من أجل ماذا ؟!
موجة من الأفكار والأحزان أخذت تلتهم روحه ، الحب الذى يعيش من أجله يلوكه فى نهم
انه يتبعثر.....لا شك فى هذا.....يتبعثر ، تندلق حياته أسفل قدميه ويدعسها دون أن يدرى وهو ينظر الى هذا الهدف الراقد فى الأفق
سأل نفسه سؤال من بين كل هذا
-هل تستحق النتيجة كل هذا ؟!-

* * *

--بيانات المتبنى من فضلك-
انتشله هذا الصوت الجهور من قاع تفكيره المتهالك ، أجفل عند سماع صوت الرجل الجالس خلف المكتب فى اقتضاب ، أخرج بطاقته وأعطاها الى هذا الرجل العابس ، تناول منه البطاقة وأخذ يحملق فيها لحظات قبل أن ينقل البيانات على الورق الراقد أمامه
يوم مجهد من الخطوات الروتينية الرتيبة والأوراق والثرثرة ، لولا أن -علاء- جعل صديقه الشرطى يخبر الملجأ أن هناك أحد معارفه سيأتى اليوم ليتبنى أحد الأطفال....لما كان انتهى بسرعة حكومية....بل كان سيظل الدهر كله فى اتمام الأوراق وانهاء الثرثرة حتى يصبح الملجأ قبره !
بالطبع لم يخبر الشرطى بالحقيقة ، اكتفى باخباره أن له صديق يريد أن يتبنى طفل لأنه لا ينجب
--تفضل-
قالها الرجل العابس وهو يناول -علاء- بطاقته ، انتشله أيضا هذه المرة من

تأمله لهذا الصبى الماثل أمامه فى ذعر ، من حقه أن يذعر.....ليس من السهل ترك المكان الذى نبت فيه وترك أصدقائه والذهاب مع رجل غريب يقول أنه سيتبناه ، لكنه وجد الراحة فى ملامح -علاء- الغارق فى موجات أفكاره العنيفة اصطحب -علاء- الولد وتجاوزا معا مدخل الملجأ الكئيب ونظرات الولد لم يفارقا المبنى الجاثم وسط الأشجار الساكنة ، صعدوا الى سيارة -علاء- ليصبحوا فى اللحظة التالية منغمسين فى زحام المدينة الصاخبة

اليوم هو اليوم الأخير كالعادة.....اليوم يجب عليه قتل -شهاب- الولد الصغير الجالس بجانبه فى براءة ويتطلع على المبانى من حوله فى شغف ، اليوم يجب أن يكتم أنفاسه ويمرر سكينه أسفل ذقن الولد الصغير ، اليوم يجب أن يموت مرة أخرى

لم تعد حياته حياة يمكن عيشها ، فى سادس اكتمال للقمر يعرف من سيقتل ، يوم التنفيذ ينغمس وجهه فى العرق وتهرول دماؤه داخل عروقه المنهكة.....مع عرض آلاف الصور فى استوديو عقله ل-فريدة وجنينة وضحياه- ، وباقى السنة يعيش التوتر بكل مراحله المتقدمة.....وينهشه تأنيب ضميره...أو ماتبقى منه

بعد لحظات يجب أن يقتل ولد برىء لم يفعل شيئا الا الوثوق فيه ، بعد لحظات سيضطر الى مواجهة نظرات الطفل المذعورة المبللة ، وتنهطل عليه كلمات التوسل ويصمه صوت النحيب المدوى ، هذا الولد لم يرد سوى التنفس والطعام والشراب فقط...لم يرد سوى الحياة ، وعندما يأتى اليوم الذى يبشره بحياة هنيئة وفراش ناعم وحضن حنون....سيتفاجىء بمن يفتك به ويزهق روح أحلامه

لــماذا الأبــرياء ؟! لماذا دائما الأبرياء ؟!

ركز نظره على بؤرة الطريق متجاهلا نوات أفكاره ، لاحظ أن الولد يبلع ريقه بخشونة....يجب أن يحقق كل مايتمناه هذه الليلة.....انها ليلته الأخيرة

--حلقك جاف....سأجلب لك بعض العصير-

ابتسم له الولد بعفوية

هناك على جانب الطريق يوجد محل بقالة مجاور لصيدلية ، سيجلب له العصير من هذه ال.....صيدلية ! ، اذن هذا هو وقت النوم

هبط من سيارته متجها الى الصيدلية الرابضة جانب المحل ونظرات -شهاب- المتسائلة لا تفارقه ، بعد لحظات عاد الى السيارة بعد شراء العصير وناوله ل-شهاب- الذى قام باغتصاب العلبة دون رحمة ، كان يسحب العصير الى جوفه فى شغف.....بالطبع هذا المشهد ترك آثرا داميا فى قلب -علاء-

--شكرا لك يا أبـــى-

نطقها بعفوية أثناء رويه بالعصير ، لم يستطع قلب -علاء- التحمل....تهشم قلبه حتى شعر بشظاياه تتناثر داخله والتى يصعب جمعها

لماذا الأبرياء ؟! لماذا قرابين الحب أبريـــاء ؟!

بدأ مفعول المنوم -الذى حقن -علاء- العلبة به- يخطو على جفون الولد ، بدأت بالتراخى...ثم التثاقل.....ثم الانسدال ، عندما وصل أمام الخيمة السوداء كان -شهاب- قد وصل الى قاع النوم وليس باستطاعة أحد انتشاله بسهولة من هناك كالعادة ، كانت -جنينة- تجلس على مقعدها القطنى وعلى فمها تقطن هذه الابتسامة الباردة والتى لا توحى بشىء ، ترتدى زيها الأسود وتجلس أمام الخيمة السوداء الممتد أمامها الفراش الأسود والمقاعد السوداء.....بدت له كشيطان جاثم وسط الظلام المبدد باضاءة خافتة موجسة

كان يحمل الولد متجها نحوها فى خوف ، لم يتغير وضعها....ظلت تتأمله فى برود وعلى شفتيها الابتسامة

جلس أمامها بعد أن وضع الولد النائم بجانبه ، تنهد وشرع فى القاء الكلام لولا أن صوتها سبقه :

--الدمـــاء....يجب وجود الدماء ، الكثير منـــها-

فى بعض الأحيان كانت تبدو له كآلة تلقى كلام مبرمج لا تعرف غيره ، بشفاه مرتجفة اندلق الكلام من حلقه :

--هل يجب أن أقتله ؟ ، ألا يمكن أن أعطيكى الدماء وآخذه الى مشفى....-

قاطعته بنبرتها الثلجية :

--لا آخذ شىء لا أحتاج له ، انه القربان...يجب وجود القربان....مع الدماء.... الكثير من الدماء -

هذه الطريقة الآلية الباردة تنفث الخوف أكثر من الصراخ والعيون الزائغة ! ، برغم كل ماحدث مازال يسأل نفسه سؤال - عرافة أم ساحرة ؟!-
مجبرا خائفا قام باخراج سكينه الصغير ومد يده يتناول رأس الصغير الغائط فى النوم ببراءة ، شرعت عيناه فى هطل العبرات حتى سقطت على وجه الولد ، فى اللحظة التالية كان عنق -شهاب- ممزق تهجره الدماء الساخنة
--جميل.....الآن يمكننا البدء-
قالتها وبدأت فى ممارسة الطقوس المعتادة ، لحظات طويلة مرت كدهور حتى انتهت وآمرته بالانصراف.....ولم تنس أن تبارك له لأجل العام الجديد....عام جديد من الموت !
نهض فى ثقل وألقى نظرة أخيرة على وجه -شهاب- الشاحب قبل أن يترك قبلته على جبينه البارد ، اتجه بشرود ناحية سيارته شاعرا بثقل قلبه يجثم على أنفاسه.....تاركا عيناه تسكب املاحه بتبذير.....وأفكاره تلتهم عقله وروحه.... وضميره أو ما تبقى منه يمزقه
لماذا كل هذا العذاب ؟!
-هل تستحق النتيجة كل هذا ؟!-

* * *

قد فات عام على موت -نسمة- ، وفاتت ثلاثة اعوام على موته هو !
كان يلتهم الطرق كالمجنون تاركا خلفه الصوت والضوء يحاولوا اللحاق به ، لا يستطيع رؤية الموجودات من حوله من فرط السرعة ، يشعر وكأنه فى سباق مع الزمن ذاته ، لم يتبق من الوقت سوى ساعتين ، ساعتين يجب أن يعجوا بالقتل والدماء والادرينالين ، ساعتين خلالهم سوف يكتظ الحزن والندم والقسوة فى قلبه ، المهمة هذا العام أصعب من كل ما مضى ، لاحظ هذا التصاعد التدريجى فى صعوبة التنفيذ
فى البداية تطلب شاب قوى البنية....ثم صبى لم يصل لسن البلوغ.....ثم فتاة عذراء
هذه مرحلة الجثث طبعا....قبل أن تثب به لمرحلة أخطر لم يفكر فيها اطلاقا ، بدأت فى طلب أعضاء بعينها !

تريد هذا العام عيون.....وليس أية عيون ، تريد عيون لرجل كهل تجاوز السبعين !
بمعنى أنه يجب أن يقتل رجل لا حول له ولا قوة وفى عينيه نظرة يعرفها جيدا وقد رآها أكثر من مرة ، ثم ينتشل عينيه من محجرها بكل بساطة وباستاذية ويذهب بهم الى -جنينة- ليتم المراد.....ولا تنسى ، تبقى من الزمن ساعتين
مازال فى سيارته يغمر الأنحاء بنظره بحثا عن سىء الحظ هذا ، كلما مر الوقت زاد قرع الطبول داخل ضلوعه
هذا العجوز لا يصلح....معه ابنته أو حفيدته !
وهذا أيضا لا يصلح.....فهو يصعد الى سيارة أجرة وهرولت به مبتعدة
هذا هو ! ، هذا هو الطراز المناسب
عجوز.....وحيد....حزين ، يجلس فى صمت ويرمق النيل الرابض أمامه فى سكون ، الشارع خالى ليس به دابة ، والحركة أسدلت جفونها.....لا يوجد سواه مع هذا الكهل المتأمل.....سيكون الأمر سهل ، ليس بحاجة الى الذهاب الى منزل والده القديم لينفذ ، فقط يحتاج بعض الشجاعة.....أو الكثير منها
ترجل من سيارته ومشى وسط الصمت الصاخب متجها الى هذا العجوز بهدوء ، كان مازال يرمق وجه النيل الصافى وانعكاسات أضواء المدينة عليه ، جلس -علاء- بجانبه فى صمت ليلتقط أنفاسه قليلا....كما أن الهواء ممتع والنسيم مداعب وهذا يخفف من حدة توتره قليلا ، كان النسيم البارد يتخلل جسده حتى تكدس داخله....وأخذ الانتشاء يدغدغ روحه
لماذا لا أترك -فريدة- والأمر برمته وأحلق فى هذا الهواء حتى الموت أو أرتمى فى أحضان هذا النهر حتى الأعماق ، لماذا أتمسك بها الى هذا الحد.....حتى الكفر ، لماذا لا أكرها ؟!
لماذا لا تطاوعنا مشاعرنا فى كثير من الأحيان.....لماذا نضعف الى هذا الحد..... لماذا تنغمس أرواحنا فى أجسادهم....لماذا نتنفسهم.....كلما زاد الحب كلما زاد اقترابنا من حافة الهاوية.....والكارثة بأننا نعرف أننا عندما نسقط لن يرموا لنا الحبل ! ، لن يرهقوا أنفسهم حتى بأن يرمقوا أجسادنا المهشمة فى القاع ، لماذا نحب أصلا ؟! لماذا نعشق ؟! لماذا يفرز هذا الاوكسيتوسين ؟!

مئات ال-لماذا- قد اكتظ بها عقله حتى التورم ، ولكنه يعرف أن -لماذا- لا تصلح فى هذه الأمور ، يعرف أن الحب معناه هلاك روحك...معناه استهلاك نفسك حتى الصفر

قد نختلف أو نتفق أن ما يفعله نابع من حب ذات بحت.....ولكننا سنظل متفقين على شىء واحد.....أنه يحب ! وأن هذا الحب يستنزفه.....حتى الهلاك انتشله من غياهب تفكيره صوت الرجل يصدر بوهن قائلا :

--الجو جميل-

--نعم.....جميل-

--لا يوجد سوانا تقريبا.....نحن الوحيدين الجالسين نتأمل النيل الساكن متشبهين به ، من يرانا سوف يقول أننا مجانين.....أو جئنا الى هنا لنبصق همومنا على بعضنا-

--وهل أنت مجنون أم مهموم ؟-

ابتسم الرجل قائلا:

--الاثنين ، وأنت ؟-

--مثلك-

ضحك الرجل بفم يخلو من الأسنان ثم قال :

--ما رأيك أن نبصق همومنا على بعضنا كما لم يقل من لم يرانا ؟-

ابتسم -علاء- وهو يدس لفافة تبغ فى فمه...وقال قبل أن يشعلها :

--فكرة جيدة....ابدأ انت ، أنا أسمعك-

ابتسم الرجل ونظر أمامه فى شرود وكأنه لم يقرر هل سيتكلم أم يظل ملتزم الصمت ، ولكنه يعرف أنه يحتاج الى الكلام....يحتاج الى تخفيف هذا الهم الجاثم على أنفاسه ، فاتت فترة ليست قصيرة وهو خالد الى الصمت قبل أن يستجمع همومه ويلفظها خارج صدره دفعة واحدة :

--أنا أجلس هنا منذ ثلاثة أيام ، ثلاثة أيام لا أفعل شىء سوى الانتظار.-

--انتظار ماذا ؟-

--أرجوك لا تقاطعنى ، أنا اسمى وكيل السيد....مدرس متقاعد ، أرمل....ماتت زوجتى قبل خمس سنوات ، المشهد المعتاد.....أستيقظ فى الصباح وأنظر جانبى

لأجد أنى لفترة كنت أنام جوار جثة ، منذ هذا اليوم وأنا لا أمتلك سوى ابنى أمجد....لا أقارب..لا أصدقاء...لا عمل ، حياتى بدون أمجد عبارة عن فجوة كبيرة يرقد فيها اللاشىء ، أمجد شاب ذو خمسة عشر ربيعا ، كيان حى للحماس والخير والبراءة التى لم تدنس بعد ، لم أبخل عليه يوم ولم أحرمه من شىء أبدا.. .....ولكن دائما الحياة تسير هكذا ، دائما أغلى شىء تمتلكه هو أول شىء تفقده ، لذلك أنا فقدت أمجد....تركنى النذل وذهب الى والدته رحمها الله ، كان هذا فى اليوم الذى أرسلته فيه لشراء العشاء ، وقفت فى الشرفة لأراقبه ككل الآباء. ...وكأنه لو اختطف أو مات سأتصرف من مكانى فى الشرفة ! ، وجاءت هذه السيارة اللعينة من العدم ودعسته بحقد ، رأيت نظرة الاندهاش فى عيناه التى أعشقهما ، ونقل الى المستشفى.....ومازال هناك ، ومازال الأطباء يحاولوا الاتصال بى ليخبرونى بشىء ما.....ولكنى هنا ولن أسمح بأن يصل الى أحدهم-

عقد -علاء- حاجبيه فى استغراب ، كان متأثر حقا بنبرة الرجل الحزينة وجسده الهش من قلة الأكل أكثر من تأثره بقصته ، تنحنح -علاء- بعد طول استماع وقال فى استغراب :

--ولكن لماذا ؟! ، من الممكن أن يخبروك أنه أصبح بحالة أفضل وتصطحبه الى منزلكم فى سلام ! ، لماذا تأبى وتظل هنا ؟!-

--لن يقولوا هذا.....هذه الأخبار لا تأتى من فم أطباء فى مستشفى حكومى ، أنا متأكد أن روحه هناك تحلق بجانب والدته ، متأكد أنه ترك هذا العالم.....أشعر بغياب أنفاسه عن الهواء....بهروب نبضات قلبه من هذا العالم -

تنفس -علاء- فى عمق مدركا أنه ليس الوحيد فى هذا العالم.....لكل كائن مصيبته حقا ، قال بعد فترة :

--لم تجاوبنى.....تجلس هنا فى انتظار ماذا ؟!-

ابتسم -وكيل- وكأنه تذكر شىء يعشقه :

--المـــوت ، أنتظر تذكرة للصعود اليهم بسرعة...اشتقت لهم حقا-

قال كلمة -موت- وفى نبرته نوع من اللذة ! هذا الرجل ينتظر الموت حقا وفاتحا له ذراعيه فى حب !

--أنا أسمعك-

قالها -وكيل- ل-علاء- بصوت مبتسم وكأنه قد تخلص من همومه وهواجسه فى ثانية ، تصاعدت الدماء فى رأسه.....لا يحب أن يتكلم فى هذا الأمر.....لم يتكلم فيه مطلقا مع أى انسان قط.....والآن سوف يحكى لعجوز معتوه لم يراه من قبل !

ولكنه ابتسم وقرر أن تندلع أسراره خارج صدره عندما تذكر أن هذا العجوز سوف يقتل على يديه بعد لحظات....فلا مانع من بعض -الفضفضة- الصحية.. ..والتى يحتاج اليها بقوة

أشعل لفافة تبغ أخرى ونفث منها سحابة كثيفة من الدخان ، الكلام لا يريد تجاوز حلقه...لا يريد أن يخرج من فمه ليتنفس قليلا....يفضل البقاء فى قاع نفسه حتى الموت ! ، ولكنه يريد أن يحكى له ، يريد رؤية نظرة حزينة فى عين العجوز وأن يخبره بأنه ضحية...يريد أن يشعر بالتعاطف قليلا ، يحتاج الى بعض الحنان...الى عناق قوى....يحتاج الى التأنيب....يحتاج أن يتكلم فعلا !

--لم أكن أريد حدوث كل هذا ! ، لم أتمنى سوى حبها....أقسم أنى لم أتمنى سوى حبها-

أجفل -وكيل- عند سماع صوت -علاء- المتذبذب بفعل هذا البكاء وهو يقول هذا الكلام !

كان منهارا حقا ! ، فلتت سيطرته على عينيه وأخذت فى سكب أملاحها بقوة ، تنهد -وكيل- وقال بنبرته الهادئة :

--اهدأ يابنى....اهدأ....وابصق همومك براحة-

تقهقر انفعال -علاء- قليلا...تنفس الصعداء وواصل الكلام :

--اسمها فريدة ، ذات العينان العسليتان....والحرير المتطاير من رأسها....وحلقها عازف اللحن الذى يروق الى قلبى....وطريقة السير التى أعشقها....والنظرة التى جذبتنى أكثر من جذب الأرض.....وصوت الخطوات التى يهتز الكون معها ، فتاتى.....كتلة معشوقة تتحرك وتتنفس على الأرض ، كنت أشعر بأن لى الشرف أن أخطو على أرض تخطو هى عليها....وأن أشاركها اوكسيجينها ، كنت أعشقها. .ومازلت أذوب عشقا

ولكنها لم تلاحظنى....لم تلاحظ أن هناك رجل يمكنه أن يموت لأجلها....لم تلاحظ

أنها لن تجد هذا القدر من العشق فى قلب رجل آخر....أو بمعنى أصح لم تعرف ، كنت أبله أجلس مستمتعا بأحلام يقظتى بينما هناك متسكع سبقنى وأسقطها فى حبائله ، عندما وصلنى الخبر عن طريق صديقى أحمد- والذى كان يعرف أنى أعشقها- انقطعت أنفاسى وآبت الخروج...سخطت على هذا العالم بكل من فيه. ..والحياة بكل من على قيدها.....والحب بكل من يعيشوه ، شعرت بأنى أسقط فى العدم وفطنت أنها لن تلاحظ سقوطى أيضا ، شعرت بأنى نكرة...حشرة وقد دعستها هى بدون قصد ولكن النتيجة أنى أصبحت جثة تتنفس

وجاء اليوم الذى رأيتها فيه تقبل حبيبها وفى عينيها نظرة رأيتها كثيرا فى أحلامى ، هذا المشهد قد أسقط البرق فى أفق قلبى ليشرخه ، سحب دمائى بعنف....وكتم انفاسى بدون رحمة ، قتلتنى مرة أخرى

لم أتحمل أكثر....أطلقت العنان لعيونى لتسبح قرنيتى فى عبراتى المالحة ، شعرت بوكز حاد يخترق قلبى الذى أصبح هشا

وبعد هذا بشهور قليلة ولد حبها لىّ ، ولكنه حب من نوع خاص.....حب يروى بالدماء ! -

كان العجوز يستمع له فى اهتمام....وقد ظهرت فى عينيه النظرة التى كان -علاء- ينتظرها ، قال -وكيل- بعد فترة صمت استعاد فيها -علاء- هدوءه :

--ماذا فعلت ؟!-

--تذكرت بثينة جارتى....والتى من طراز (أشتاتا أشتوت) ، وطرحت فكرة مجنونة فى عقلى...ولكنى لم اتمكن من طردها ، أخذت منها عنوان عرافة..أو ساحرة ، ذهبت اليها وحكيت لها ما أريده ، قالت لى أن آتى فى سادس اكتمال للقمر... .وعندما ذهبت لها ، صفعتنى بطلباتها.....طلبت منى جثة شاب قوى البنية ويجب وجود دمائه ! ، فى البداية رفضت...ولكنها وافقت رفضى فورا ودعتنى للانصراف....بصراحة كنت أنتظر منها الالحاح للموافقة ولكنها لم تفعل..... لحظتها التمعت فكرة أن تحبنى فريدة....أن تعشقنى كما أعشقها ، ووافقت. ....وعودت لها بجثة شاب غارقة فى الدماء ، مارست الطقوس الغريبة وقالت لى أن أنتظر حتى تأتى فريدة للتقرب منى....وبعد الاقتراب أطلب منها الزواج بشجاعة ، بالطبع سألتها لماذا لا تطلب هى منى...ولكنى أدركت عدم وجود

تعاويذ تجعل الانثى تتنازل عن كبريائها لهذه الدرجة وان سقطت السماء على الأرض ! ، أخبرتنى هذه المرآة وجوب تجديد العزيمة كل سنة..فى نفس الميعاد وأن أذهب لها فى سادس دورة مكتملة للقمر لأعرف القربان الجديد....وان مضت سنة بدون التجديد لن يجوز تجديدها مرة أخرى وستطفو الحقيقة الكريهة على سطح حياتى البائسة ، سأخسر فريدة الى الأبد....ولن أجد المياه القادرة على تطهير يدى من الدماء المنغمسة بها

هل تعرف....اليوم هو آخر أيام التجديد...وبعد ساعة ونصف من الآن سينتهى كل شيء ان لم أحضر لها بالقربان ، العيون....طلبت منى عيون رجل عجوز

كنت فى سيارتى أجوب الشوارع بنهم بحثا عن العجوز....عن القربان الجديد.. وعندما وجدتك تجلس وحيدا أدركت أنى وجدته أخيرا-

نظر له -وكيل- بذهول فى بداية الأمر ، ولكن بعد لحظات حال الذهول الى ضحكات عالية دمدمت فى المكان الخالى....أعقبها سعال عنيف كادت روحه أن تلفظ معه ! ، انتقل ذهول الرجل الى وجه -علاء- ليمكث فيه محاولا ادراك ردة الفعل الغريبة ! ، خمدت ضحكات الرجل بعد فترة وقال فى هدوءه المعتاد :

--أنا هنا أنتظر الموت...وأنت هنا تبحث عن شخص تقتله....ياله من قدر-

صمت -علاء- ملاحظا أن العجوز سيكمل كلامه عندما ينتهى السعال

-- سأعقد معك اتفاق....سننهض الآن ونذهب الى منزلى الخالى ، ستقتلنى وتأخذ ما تريده ، ما رأيك ؟-

اشتدت امارات الذهول على وجه -علاء- ، فكر هنيهة ثم وبصوت مرتجف قال :

--هيا بنا...معى سيارتى-

انهى جملته واتجه الى سيارته منتظرا العجوز الذى استنزف وقت لا بأس به للوصول الى باب السيارة والدخول فيها

أدار المحرك وشق الطرق شقا ليجد نفسه بعد لحظات أصبح داخل منزل العجوز البائس

لن أوصف الشقة الا بكلمة واحدة كفيلة بخيالك.....بسيطة ! ، هذه أبلغ كلمة تقريبا ، دلفوا اليها فى لهفة وقلب -علاء- لا يكف عن الصراخ ، تمشى -وكيل-

بوهن متجها الى احدى الغرف ليخرج منها بصورة ابنه -امجد- ، قبلها بحرارة وضمها الى صدره ووقف بشموخ فى منتصف الصالة ، كان -علاء- مازال يقف والذهول لم يتخلى عن وجهه ، ما هذا الذى يحدث ؟!
ظل يحملق حوله بحثا عن أى شىء يقتل ولا يؤلم.....الشرفة لا تصلح....السكين ؟ بالطبع لا.....اذن جرعة دواء زيادة ! ، سيظنوه انتحارا ، اذن ماذا ؟!
--أريد أن أخبرك شيئا يابنى-
قالها -وكيل- وقد تلألأت عيناه بالعبرات ، نظر له -علاء- محاولا التخلى عن بعض الخوف...عن بعض حفريات الانسانية الماكثة فى قلبه ، أومأ -علاء- برأسه فى اشارة أن يكمل كلامه
--ضع حدا لهذا السخف الذى تعيشه ، الحب الذى يروى بالدماء ليس حبا. ...أنت تعيش داخل اكذوبة كبيرة وتخسر نفسك داخلها...ستسحبك حتى العمق ولن تستطيع الخروج منها ، سيأتى يوم لن يستطيع الكذب المكوث أكثر....سيتركك مع الحقيقة لتلوكك ولن يتبقى منك شيئا ، ستجد نفسك قد خسرت كل شىء وخسرت فريدة أيضا....فريدة لا تحبك....هذا أمر واقع ، ولكن باستطاعتك ان تجلعها تحبك...بدون دماء وبدون سحر ، الحياة داخل الحقيقة بدون فريدة...أجمل بكثير من موتك كل عام-
أثناء قوله هذا الكلام كان -علاء- يقف خلفه ممسكا برأسه وكل خلية فيه منتبهة لكلامه ، هل بعد كل هذا الدم....ستتركه -فريدة- فى النهاية ! ، هدر قلبه لهول الفكرة وغرق وجهه فى العرق....امتلأت خلاياه بصورة واحدة فقط. ....-فريدة-
--أوعدك أن أفكر فى هذا-
--أشهد أن لا اله الا الله....وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله-
بصوت متذبذب قالها الرجل ، ما ان انتهى من اردافها حتى تعالت صوت طرقعة عظام عنقه....وارتطام جسده الهش بالأرضية
سيحتاج الى سكين حاد واستاذية فى انتشال عيون من مجريها وبأسرع وقت !
نظر الى ساعته قبل أن يبدأ.....لم يتبق الكثير !

* * *

كان الزحام شديد...والصخب قد بلغ ذروته...وهدير الشارع يصم الأذان ، ولكن كل هذا انغمس فى صوت بكاؤه المدوى.....وغلفه صوت نحيبه المنفجر
فى السنوات السابقة أذهلته نفسه وأفعالها....وكأنه لم يكن يعرفه من قبل ، شىء شديد القسوة عندما تتفاجىء بأنك لا تعرف نفسك جيدا ، فتغدو تخاف من نفسك...وتخاف على من حولك منها
هكذا دعس على كثير من الجثث...وانغمس فى كثير من الدماء ، من أجل ماذا ؟؟
من أجل امرأة لا تحبه ؟!
ولكنه لا يحبها أيضا ! ، هو يحب وجودها بجانبه.....يحب أن يشعر بأنفاسها. ...يحب أن يهدر قلبها ناطقا اسمه....يحب ضعفها بدونه ، باختصار هو يكون سعيدا بجانبها...هو يحب سعادته فى وجودها ، وان كان يحبها حقا لتركها لغيره طالما فى هذا سعادتها...ان كان يحبها حقا لما سكب الدماء لتنمو أطراف حبها... .لم جعل الجذور جثث أبرياء لا دخل لهم بقصته ، لما جعل السحر يتخلل حياته والقتل يصبح عادة سنوية
اذن هو لا يحبها.....بل يحب حبها له !
منذ مدة وهو يبكى....منذ صعوده السيارة بعد أن أعطى -جنينة- عيون الرجل ليبقى حب -فريدة- المزيف قائما جاثما على ضميره وحياته
تعالى صوت رنين هاتفه ليملؤ السيارة ، كان بكاؤه قد خمد.....ألقى نظرة جانبية على الشاشة ليقرأ اسم -أحمد اسماعيل- ، تحركت شفاهه مكونة ابتسامة وهو يتناول الهاتف ويتنهد استعدادا للرد بصوت يخلو من امارات بكاء حارق
--آلـــو-
جاء الصوت عاليا مرحا من الجهة الأخرى قائلا :
--كيف حالك ياحيوان ؟! ، بدون كلمات ستأتى غدا ومعك فريدة الى بيت والدك فى عشاء عائلى اشتقنا له ولا مجال للرفض سننتظرك أنا وهاجر ووالدك فى الساعة الثامنة سلام-

فورا أغلق الخط بعد انهاء كلماته ، بمكالمة واحدة حال بكاء -علاء- الى ضحكات يلفظها قلبه فى مرح
-سيكون الغد جميلا-
هكذا قالها لنفسه بابتسامة ، لكن بصوت خفيض حتى لا يسمعه داخله فيسرع بتأكيد العكس !
لهذه الدرجة أصبح يخاف نفسه !

* * *

وقف فى الشرفة يتأمل السحاب المظلم وهو يطمس السماء منذرا بأمطار لا يستهان بها ، كانت لفافة التبغ مدسوسة فى فمه وتتوسل له اما أن يشعلها أو يضعها فى العلبة فى سلام بعيدا عن هذا البرد المرجف ، سمع توسلها فأشعلها ونفث دخانها الكثيف فى استمتاع
فى هذه اللحظة جاء -أحمد- من الداخل ووقف بجانبه يرمق السماء المتوارية خلف السحب الكثيفة
--الجو غاضب هذا اليوم-
قالها -أحمد- بابتسامة قبل أن يرد -علاء- وهو يرسل الدخان ليرقص فى الأفق :
--واضح.....سيتبول علينا أمطاره فى حقد-
ضحك -أحمد- من قلبه قبل أن يقول -علاء- :
--ما خططك هذا العام ؟-
--لا شىء....العمل وجمع الأموال تمهيدا لحضور ولى العهد-
نظر له -علاء- وفى لهفة قال :
--هاجر حامل ؟!-
--ستكون حامل هذا العام باذن الله-
ضحك -علاء- قائلا :
--لا تستهون بالقدر...لا أحد يعلم ما الذى يتوارى فى السنين القادمة-
--وانت ماذا خططك هذا العام ؟-
--سأعرفها بعد سادس اكتمال للقمر-
--مـاذا ؟!-

--الشـــاى-
هذه الرغبة الملحة فى الاعتراف هى من جعلت -علاء- يلقى امارة لسره الكبير الكامن فى صدره ويضيق تنفسه ! ، ولكن -أحمد- لم يجد الفرصة للاستفهام ، كما هو واضح جاء أحدهم حاملا أقداح الشاى
كانت -فريدة- هى من تحمل الأقداح....تقدمت نحوهم لتعطيهم ما تحمله وعينيها مثبتة على عيون -علاء- تتأمل لبّها فى حب ، ابتسم -علاء- ابتسامة جانبية وأخذها فى حضنه بحنان ، فى هذه اللحظة تعالى صوت شرخ أصاب قلبه ! ، كم يتمنى أن تكون هذه اللحظات حقيقة نابعة من قلبها وارادتها حـقا !
-ماذا فعلت بنفسى وفعلت بها ؟!-
قالها فى سره كاتما عبرات تحاول الخروج من عينيه فى الحاح ، تنهد وهو يرمق السماء المكفهرة.....قبل أن يترك بصمة قبلته على جبين -فريدة- الغائصة فى حضنه
مرت أرباع ساعة وهم واقفين فى ثبات تتعالى غمغمتهم وضحكاتهم الخافتة ، كانوا البقية ينظرون لهم بابتسامة فى حين قال والد -علاء- :
--يبقيهم لبعضهم-
هذه اللحظات بالذات هى من تدفع -علاء- لاستكمال طريقه الدامى.....هذه اللحظات هى أول ما يأتى فى عقله ليخفف حدة تمزقه قليلا....هذه اللحظات يعيش لأجلها....ويموت لأجلها
بعد دقائق أخرى عادوا من الشرفة معلنين ذهابهم الآن ، ألقوا التحيات ونثروا القبلات قبل أن يرتموا فى أحضان الشارع البارد متجهين ناحية سيارته
ولكن قبل وصولهم أدركوا بدء نوبة الأمطار ، أسرع -علاء- خطواته ناحية سيارته فى حين أبطئت -فريدة- وأخذت تتأمل السماء مع هذا الرشح الذى ينثر عليهم قطراته الباردة ، كان الشارع خالى يفترش بالأمطار الخفيفة المداعبة
نظر -علاء- الى -فريدة- وقد أدركها....مد يده ناحيتها وأومأ برأسه أن -هيـا- تمشوا ويداهم تقبض على بعضها...وقطرات الأمطار تتساقط عليهم بخفة.... والنسيم البارد يتحد مع شظايا الأمطار ليداعب وجههم ، شعرها الأسود كان يتدلى مبتلا...وقطرات المياه تناثرت على وجهها الأبيض....مع عيونها العسلية

أصبح لها طابع الملائكة....
أما هو كان فى غياهب شىء آخر ، هذا المـــشهد !
هذا المشهد قد عصف بعقله جالبا ذكريات دامية بامكانها أن تؤدى به ، -نسمة- ! ، هكذا نطقها عقله بخوف....وقلبه باشتياق وندم !
-نســمة !-
الفتاة التى أحبته بصدق وغيرت نمط حياتها لأجله ، كانت عيناها الخضرواتان ينبعث منهم عشقها....شغفها بالنظر له....ولعها باستنشاق أنفاسه ، أحبته بصدق بدون تدخل سحر -جنينة-..بدون دماء...بدون عذاب جهنم الموقد فى أعماقه
أحيانا تقطن الفكرة بعقله لتقتله
ان لم يقتلها....ان تخلى عن كل شىء وغاص معها فى حياة جديدة نقية ! ، كانت فرصته الأخيرة للتراجع والانغماس فى حب صادق نادرا أن تجده...كيف أضاعها من يده ، كيف ذبحها....كيف تمالك نفسه وهو يمسك السكين ويقطع عنقها بعنف وبكامل ارادته ، كيف لم يفطن الى هذه الفرصة الذهبية التى كان يملكها....لهذه الدرجة يدعس متأملا هدف يرقد فى الأفق....وليس من حقه
انه يتبعثر.....يتبعثر بلا شك !
هذه الأفكار قد جعلت المشهد عسير الفهم
-فريدة- تمشى بسعادة وهى ترمق السماء فاتحة فمها لتبتلع الأمطار فى مرح ، تقبض على يد -علاء- فى حب وتنظر له كل هنيهة لينظر لها ويبتسم بصعوبة صدره كان يعلو ويهبط وكأن هناك أمواج عنيفة تهاجم داخله باصرار ، لن تستطيع تفرقة عبراته الساخنة عن قطرات المياه الباردة ، حينها سأل نفسه سؤال وسط كل هذا !
-هل تستحق النتيجة كل هذا ؟!-

* * *

هـنـاك أعلى جبل المقطم ، هناك حيث الصمت الخالد.....هناك حيث تشعر بأن رئتاك وجوفك ملأهم الظلام....هناك حيث يقف -علاء- يرمق المدينة العجوز مستنشقا دخان تبغه مستهديا بضياء مصابيح سيارته ، هــناك حيث

ابتدت النهاية !
نـــهـــايـــة كل شـــىء
متأملا أخذ فى ارسال الدخان بدفعات متكاثفة ، هل سيفعلها....هل سيكتمل تحوله الى مسخ قذر أسهل شىء يفعله هو القتل والفتك بالأرواح....هل سيفعلها ؟!
فى هذه اللحظة تعالى صوت بكاء الرضيع المذعور حتى امتلأ الصمت بصوته وتردد فى الافق باصرار
-قد استيقظت المصيبة !-
قالها لنفسه وهو يرمى السيجارة ويتجه نحو سيارته بسرعة ، تناول هذه المطرقة الضخمة الراقدة على المقعد الخلفى واتجه ناحية الرضيع الذى مازال يطلق سيموفنيات بكاؤه المدمدم ، وقف أمام الرضيع-الذى لم يحمل اسما بعد- وفى يده المطرقة يقبض عليها بتوتر.....أخذ يتأمل وجهه الملائكى فى تردد ويجوب على كل تفصيلة يحملها وجهه الصغير ، هل سيتردد الآن...هل سيتراجع الآن ؟! لم يتردد عندما أخذ موقد البريموس مخططا للخطوات التالية ، لم يتردد عندما أرسل هؤلاء المتسكعين لينتشلوا الرضيع من جانب والدته و يفروا هاربين له ، لم يتردد عندما أعطاهم أموالهم وأخذ الرضيع معه بصحبة مطرقته الضخمة الى هذا المكان المتلزم الصمت
لم يتردد فى كل هذا.....والآن وهو يقبض على المطرقة وموشك على التنفيذ أخذ التردد يداعب عقله !
بكاء الرضيع يتعالى أكثر حتى امتلأ المكان بصخبه....سيجذب البشر الى هنا وسيلفت الأنظار....يجب التصرف
بكاؤه مزعج صاخب يصم الأذان ، اختلط مخاطه مع عبراته مع ريقه المتسرب ، يجب التصرف !
فى لحظة خمد بكاء الرضيع تماما....بل خمد الرضيع نفسه
بالتأكيد خمنت ما هى هذه اللحظة ! ، عندما هوى -علاء- بالمطرقة بكل ما يحمله من قوة على رأس الرضيع الهشة....هنا صمت بكاؤه وصمت قلبه وصمتت نظراته ، لم يشعر -علاء- بنفسه عندما فعلها....ولم يشعر بنفسه أيضا

وهو يهوى بضربة أعنف على رأس الرضيع لتتهشم تماما ، لم يتردد بأن يهوى بضربة ثالثة أشد لتتهشم أكثر وتصبح عبارة عن شظايا جمجمة ، هنا هوى بالضربة الأخيرة ليهشم الشظايا الى شظايا أصغر يسهل حرقها
حرقها !
نعم....لهذا جلب موقد البريموس العتيق ، ولهذا أشعله ووضعه فى زاوية ليرسل ضياء نيرانه فى كل صوب ولكن بحدود مشروعة ، ولهذا قبض بكفه على شظايا جمجمة الرضيع والقاها داخل النيران
هكذا جلس أمام الموقد وأشعل سيجارته وهو لا يفكر فى شىء على الاطلاق.... حتى لم يفكر فى سبب فعله هذه المرة....فقط اكتفى بالتنفيذ متجنبا ندم عظيم سيطبق على عنقه ان لم يفعلها
فى البداية كان يقتل من أجل -فريدة- ، يقتل بسبب شعوره فى امتلاك هذه الحياة وهذا الحب.....والآن يقتل متجنبا الندم اذا جاؤه هذا الشعور مرة أخرى ، نعم...هو لا يمتلك هذا الشعور الآن....هو لا يمتلك شعور أصلا فى هذه الأحيان
مزق حبال أفكاره صوت هاتفه يرن معلنا عن متصل جاء فى وقت ليس وقته ! ، نظر فى شاشة الهاتف فوجد -احمد اسماعيل- ينتظر رده ، تعالت أنفاسه وألقى نظرة خلفه على هذه الجثة مهشمة الرأس وعلى هذه النيران الآكلة.....
.ثم رد مصطنعا البرود :
--آلو...كيف حالك يا....-
قاطعه صوت -أحمد- يأتى بنبرة باكية متعصبة مرتجفة وهو يلقى كلماته :
--ابنى اختطف يا علاء ! ، عصابة اقتحمت المنزل وأخذت الرضيع من الفراش وهربوا بسرعة....كنت بالخارج واتصلت بى هاجر تبلغنى الخبر ، رضيعى اختطف يا علاء....ماذا أفعل ؟! كيف اتصرف ؟!-
--اهدأ يا أحمد اهدأ سوف نجد حل...-
--ان جرى شيئا لابنى سأموت يا علاء ! سأمووووت ! ، هاجر انتشلوا رحمها ولن تستطيع الانجاب مرة أخرى.....ارشدنى يا صاحبى....كيف أتصرف فى هذه المصيبة ؟!-
--سآتى لك الليلة..وسنتحدث وسنجد حل-

أغلق -علاء- الهاتف مقاوما رغبة عارمة فى قتل نفسه !
-ماهذا الذى فعلته !-
أخمد نيران الموقد وأخذ رماد الجمجمة ووضعها فى هذا الكيس قبل أن يرمق الجثة بنظرة أخيرة ويصعد الى سيارته وهو يشق طريقه الى الخيمة السوداء
هتك عرض الطرق كمغتصب عتيق حتى أصبح أمام الخيمة السوداء ، ليرى المشهد المعتاد والذى لن أوصفه تجنبا للملل
هبط من سيارته متجها الى -جنينة- الساكنة ، لوح لها بالكيس القابضة يده عليه والذى يحتوى على قربان هذا العام-رماد جمجة رضيع- فزادت ابتسامتها وأومأت برأسه أن -حسنا- ، جلس بواجهتها على المقعد القطنى الأسود المعروف ، ومد يده بالكيس لتتناوله هى مبتسمة كعادتها وتخرج الثلاث ورقات المعروفة ، كتبت ما تكتبه بهم ووضعت فى قلبهم الفلفل الأسود مخلوطا برماد الجمجة الطازج ، كورتهم وقرأت سورة الجن معكوسة الحروف قبل أن تلقيهم واحدة تلو الأخرى على الفحم المنتظر فى شغف
على عكس عادته لم يكن جالسا فى خوف وذعر يرميها بنظرات خائفة طيلة الوقت ووجه غارق فى نوة عنيفة من العرق ، بل أخرج لفافة تبغ ووضعها فى فمه وأشعلها وأخذ يراقبها فى تأمل وهى تمارس الطقوس المعتادة
انتهت بعد فترة وقالت بنفس النبرة ونفس الابتسامة :
--مبــارك لــك..-
قاطعها وهو ينهض متجها ناحية سيارته :
--العام الجديد-
دس نفسه داخل سيارته واقتحم الظلام حتى غاص به
بينما كان فى سيارته يقود بسرعة تلوك الطريق التمعت شاشة هاتفه واشية بمتصل ، أخذ الهاتف ورمق اسم المتصل ليجده -أحمد اسماعيل- فأجاب فى لهفة ليأتى صوت -أحمد- مطموسا بحزن جديد على عهده مصطحبا هذا الهدوء الذى ينم عن كارثة أخملت أعصابه :
--هــاجر يا علاء....هاجر انتحرت يا علاء-
دعس فورا على الفرامل لتقف السيارة فجأة بطريقة مجنونة فى منتصف الطريق

لتصدمها سيارة كانت آتية خلفها ، اندفعت رأس -علاء- لترتطم بالمقود بعنف وتتسلل دماؤه ساخنة بهدوء ، لم يبال لهذا الارتطام العنيف...ولا لهذا السب الذى يطلقه صاحب السيارة الراقدة فى الخلف ، بل أخذ ينصت الى صوت بكاء صديقه الهادر ، لم يشهد على ضعف -أحمد- هكذا ، لم تتحمل اعصابه أكثر من هذا...فشرع يجهش بالبكاء معه ، شرع فى سكب همومه بعبراته الساخنة ، أخذ يصرخ بشدة....بحرقة

هبط من سيارته ليلقى نفسه على الأسفلت البارد وهو يجهش بالبكاء ، كان سائق السيارة يرمقه فى خوف

وقف -علاء- بجانب سيارته ومازال بكاؤه موجودا...بل ازداد حرقة

--لمااااااذا ؟!!!! ، لا تستحق النتيجة كل هذا ! ، لا تستحق النتيجة كل هذا !!!!!-

قالها صارخا حتى برزت عروقه من جسده ، هذا قبل أن يسقط أرضا بجانب سيارته فاقدا وعيه

* * *

مطاوع....شهاب....نسمة....وكيل....الرضيع....هاجر...

هذه الأسماء هى من تأبى ترك ملاحقته حتى الموت ، لا تفارقه وجووهم..... ولا آخر نظرة ألقتها عيونهم قبل أن يلقوا حتفهم ، لا تتخلى حبال أصواتهم عن مسامعه....ومناطقه الحسية لا تنسى ملمس جلدهم ، انغمست يداه فى دمائهم وتطرفت أصابعه الى دماء أحبابه ، وغاصت أرواحهم فى جسد ضميره الذى يقاوم الاحتضار

حتى أنه أصبح على يقين أنه سيجد يوما -جنينة- تطلب منه قتل نفسه ليصبح قربان لحبه !

أدرك أن القتل كان بالنسبة له خيالات ضالة لطفل يعانى من اضطرابات هرمونية ، كان يغوص فى أحلامه متخيلا عدوه يجثو أمامه فى ذل وهو يطعنه ويبصق عليه بدون رحمة ، تذكر اليوم الذى تلقى فيه صفعة لا يستهان به من يد والده الضخمة أثناء عودته من المدرسة....وتذكر نظرات بنت الجيران والتى كانت مزيج من السخرية والذهول ، فى هذا اليوم وبعد أن ذهب الى غرفته

بوجهه المطبوع عليه امارات أصابع والده.....جلس على فراشه وخلد الى أحلام يقظة عظيمة رأى فيها والده يبكى فى ذل وهو لا يكف عن توجيه الطعنات الى قلبه فى غل

هكذا كان القتل خيالات ينفث فيها غضبه بسهولة

ولكن فى نظره الآن لم يكن يقتل لينفث شىء ما....بل كان يدافع عن حياة امتلكها ويجب أن تظل ملكه حتى تخمد نبضات قلبه أبدا

كل هذه الأسماء السابق ذكرها كانت قرابين دفاعه...قرابين حبه ، وعندما ازدادت الدماء حتى كادت أن تطمسه...وعندما أدرك حقيقة تحوله الى سفاح أو مسخ لا يأبى بدموع أو سن أو توسل....وأدرك أيضا أن كل ما فعله هذا لم يقدم له المراد...لم يجعل -فريدة- تحبه فعلا ! ، هكذا اتضحت أمامه الحقيقة.

...كل هذه الدماء التى ابتلعها منتظرا فى شغف حب -فريدة- الأبدى لم تبدِ مفعولا سوى ازدياد سكرات الاحتضار فى جسد ضميره الهش ، هكذا أيقن وجوب وضع النهاية المناسبة

يجب أن تكون النهاية هذه الليلة.....يجب

فى يوم معرفة القربان الجديد أخبرته -جنينة- بما كان يآمله ، قربان هذا العام هو سيدة.....امرآة تعدت مرحلة أن تنعت بالفتاة ، ويجب وجود الدماء..... الكثـير منها

لم يخطط ولم يبحث لأن ضحيته دلفت الى عقله فور معرفته بالنوع ، حينها نهض واتجه الى سيارته وشبح ابتسامة يرتسم على سطح شفتيه وفى أعماق روحه ، حينها قرر فعلا أن هذا سيكون آخر قربان من قرابين الحب

والآن...فى هذه الليلة....ليلة التنفيذ ، كميات كثيفة من الراحة غمرت داخله وأغرقت الخوف والتوتر....نفثت الحياة فى جسد ضميره من جديد ، شعر فعلا أن هذا هو الثأر المناسب له

-كانـــت سـبـب كل هذا-

قالها لنفسه وهو يهبط من سيارته ويتجاوز مدخل العمارة....ونظرات الخفير تلاحقه فى شك...فنظرات -علاء- الزائغة التى تطلق الشرر لا توحى بخير أبدا

-كانـــت سـبب كل هذا-

لا أنكر أنه يفعل ذلك فى محاولة لاقناع نفسه بأنه ضحية....بأنه لا ذنب له.... بل الذنب لمن ساعدوه !
وقف أمام باب الشقة وشفاهه لا تتخلى عن ابتسامة الثقة....الفرحة !
دق الباب بتؤدة
سمع وقع خطوات متجهة ناحية الباب.....جميل ، اقتربى أكثر من نهايتك يا حقيرة
فتح الباب لتبرز -بثينة- من الداخل تنظر له فى تساؤل ، ظلت النظرات هى المتحدث الرسمى فى الموقف....حتى قالت هى باستغراب :
--ماذا هــناك يا أستــاذ عــلاء ؟!-
كالعادة لم يرد مما أصابها بتوجس....خاصة مع منظره هذا ! ، ابتسامة غريبة تنم عن شىء لا ينتمى الى الخير أبدا...ونظرات تخترق عينيها وكأنه يتأمل روحها فى تركيز ، كما أنه شاخص مما أصاب رعبها
--أظن أنى مضطرة الى غلق الباب-
قالتها فى حنق ومازال هو لم ينبس بكلمة ، فقط يتأمل داخلها....بتركيز.... بشغف ، أراد أن يتأمل وجهها جيدا ويتأمل الحياة تدب فيه.....حتى يسنح له بالمقارنة عندما يمكث الموت والبرود فى نظراتها.....هذا يثير ولعه حـقا
شرعت أن تغلق الباب فعلا فانتشله الموقف من تآملاته السادية ، فى اللحظة التالية كان يدفع الباب بعنف لتتراجع هى مذعورة سامحة له أن يناولها بحب هذه اللكمة التى أسقطتها أرضا وهى تنظر فى غباء
نظراته.....هناك شىء فى نظراته ! ، كانت تعرف من البداية أن نظراته يجوب فيها شىء ما وليس جيدا على الاطلاق
أغلق الباب خلفه بهدوء....وبابتسامة أخرج سكينه الصغير ، فتحت فمها على مصرعيه تجهيزا لمشروع صرخة ستوقظ الأموات فى قبورهم ، ولكنه ليس أبله. ..اكتسب خبرة لا بأس بها فى السنين الماضية ، ما ان فتحت فمها حتى وجدت هذا السكين الحاد المؤلم ينغرز داخل عنقها حتى مقبضه
فشل مشروعها لتظهر النتائج عبارة عن فحيح يخرج بألم من فمها.....فحيح عندما تنصت له تشعر وكأنك تنصت الى الموت نفسه ، ترك جسدها يمارس

احتضاره بحرية وأخذ يتأمل وجهها فى استمتاع وهو يستعيد داخل خلاياه صورتها التى كانت منذ لحظات والحياة تجوب فيها بطلاقة
هكذا أخذ جسدها فى الانتفاض العنيف...وعينيها تلقى تساؤلات بالحاح يستقبلها -علاء- بابتسامة.....والفحيح مازال يعزف سيموفنيته الأخيرة
صمت قلبها وانتشر الهدوء داخل ضلوعها ، مازالت أوعيتها تفرغ ما تحتوية فى اصرار
الدمـــاء....الكـــثير مـــنهـــا
لم يتردد لحظة وهو يغلفها بمفرش الأرض ويحملها على كتفه ويتجه بها الى الشارع فى بجاحة ، لم تتوان نظرات الخفير المتشككة عنه ، ولوهلة نبتت فى خياله فكرة أن ما يحمله -أستاذ علاء- هى جثة أحدهم.....ولكن الفكرة لم تستغرق ثوان....لن ينقل جثة فى العشاء حيث تكون الشوارع مطموسة بالشعب المتطفل والحكومة التى تشك فى أصابع قدمها ، تجاهل الموقف وتابع دلق الشاى فى جوفه...بينما كان -علاء- يضع الجثة فى الحقيبة الخلفية وأدار محركه واجتاح الطرق بسرعته المجنونة
فى هذه اللحظة عادت جذور الفكرة تنمو مرة أخرى....بل تفرعت وشكلت الثمار أيضا ! ، نهض الخفير كالملدوع واتجه بسرعة نحو المكان الذى كان يحمل سيارة -أستاذ علاء- منذ لحظات
لم يشك لحظة أن هذه البقعة الصغيرة هى دماء أحدهم !
فى اللحظة التالية كان يتجه نحو مركز الشرطة والذى يبعد عن المبنى.....كما لا تعرف لا يملك الخفير هاتف شخصى ! ولن يملك ان أردت رأيى !
أوقف -علاء- سيارته بعنف أمام الخيمة السوداء فثارت الأتربة من حول السيارة فى هيجان ، هبط من سيارته واتجه ناحية الحقيبة الخلفية وبدأ فى محاولات عسيرة فى حمل الجثة من الحقيبة بسرعة ، هنا جلجل صوت -جنينة- وهى تقول :
--بـــثـــينة كان زبونة عزيزة....أفقدتنى الكثير بفعلتك هذه-
لم يعرف اذا كانت غاضبة أم سعيدة أم حزينة ! ، دائما تتكلم بهذه النبرة الخبرية السطحية...والتى لا تعكس أية مشاعر من ترددها !

حمل الجثة بعد جهد واتجه ناحية -جنينة- بخفة ليلقى الجثة أمامها فى استحقار ، رمقت -جنينة- الجثة بنظرة يمكث فيها الثلج قبل أن تقول :
--هيا نبدأ عملنا-
لاحظت هذا الاقتضاب الطابق على ملامح -علاء- ، وكأنه لم يعد مولعا بزوجته أو يريد بقاء حبها قائما !
أخرجت الثلاث ورقات كالعادة واستعدت للكتابة ليأتيها صوت -علاء- باهتا يقول :
--بايكموش طقليوش، أجب بملكوت جلجميش كشطليخ ، أجب بحق مادعوتك به انت وأعوانك وخدامك وهيجوا فريدة بنت سعاد الى علاء ابن كوثر
احرقوا قلبها وعقلها وجسدها وروحانيتها واسلبوا ارادتها بمحبته حتى لا تتوانى لحظة عنه ولا تسمع الا له
الوحا العجل الساعة-
نظرت له نظرتها والتى لا تحوى بشىء كعادتها لتجده ينظر لها مبتسما ويوماً برأسه أن -أكملى-
استغرب نفسه حقا عندما وجد نفسه يعرف الكلمات التى قرآها مرة أو مرتين.
...ولكن الأمر راق له ، يكفى أنه لفت نظرها
انتهت من كتابة الأوراق وتلاوة الآيات المعكوسة ونظراتها لا تتخلى عن وجه -علاء- المبتسم ابتسامة تحمل معانى لا تعرفها
بعد أن انتهت من حرق ثانى ورقة....قبضت على الثالثة وكورتها استعدادا لالقائها فى الفحم الجائع ، مدت يديها لتلقى الورقة فتفاجئت بيد تقبض على يدها فى عنف ، كان -علاء- بالطبع.....نظرت له فوجدت مشاعر وجهه قد تغيرت تماما وحالت ابتسامته الى غضب حقيقى مفزع
كانت نظراته تطلق الشرر وتلقى الأمر باحترافية.....وهو أن لا تلقى الورقة الأخيرة
تركت -جنينة- الورقة لتسقط على الأرض وأعدلت جلستها وقالت فى هدوء :
--ماذا تريد ؟!-
تنهد وقال بنبرة يجهد أن تكون بريئة :

--الحمد لله أنكِ تعرفين ما حدث....وليس ما سيحدث-
انتهى من جملته أمام نظراتها-التى أخيرا أبدت معنى-المتسائلة ، ثم صفع وجهها صفعة قوية أسقطت جسدها النحيل ، لم تستطع الفهم.....فى الحقيقة لم تحاول الفهم ، فى لحظة وجدت -علاء- يجثم فوق صدرها وفى يده هذا السكين الصغير الحاد والذى فتك بكثير من قبلها....وهى تعرف هذا
--ستندم يا علاء...ستندم كثيـرا-
ابتسم لها وقال فى حرقة :
--تعودت على الندم....بفضلك-
قبض على عنقها بشدة ليبصق داخلها العروق وتظهر حدودها على جلدها المتجعد ، أثار اعجابه هذا العرق البارز من منتصف جبينها.....يبدو متلهفا فى ادلاق ما يحتويه
بقوة شديدة رفع يده الحاملة للسكين وهوى بها على رأس -جنينة-...تحديدا منتصف جبينها ليرشق السكين فى رأسها وتظهر امارات الألم العنيف على وجهها انتشل السكين بسادية ليحتك بعظام جمجمتها مصدرا صوت تقشعر له الأبدان ، وجد فمها مفتوح على مصرعيه فى محاولة بائسة للفظ الألم من داخلها ، ابتسم بشدة قبل أن يهوى مرة أخرى ليغمد السكين داخل قلبها ، روحها الملعونة تآبى الخروج بسهولة !
عاد الخوف يتملكه مرة أخرى.....ماذا ان لم تمت ! ، ستنهشه حى حتما !
أثارته الأفكار المجنونة فأخذ يوجه لها الطعنات بدون رحمة لتهرب الدماء من كل صوب موجود بجسدها
طالت الفترة ليجد بعد أن نهض من أعلاها أنها أصبحت عبارة عن جثة ممزقة تخلو من الدماء !
كان وجهه غائص فى العرق....وقلبه مشغول بضخ دمائه بايقاع سريع مدمدم ، تأمل الجثتين الراقدتين أمامه فى راحة ، ثم اتجه ناحية سيارته فى رضا....متجها الى المرحلة الأخيرة من النهاية ! ، حتما لن تكون سعيدة.....نسبيا !
* * *
دلفت -فريدة- الى الشقة بعد يوم طويل ، فقد قامت اليوم بزيارة -أحمد

اسماعيل- فى المصحة النفسية التى مكث فيها منذ انتحار زوجته التى فقدت أملها بعودة رضيعها ففضلت أن تلقى حتفها على أن تعيش طوال عمرها بدون أطفال ! ، لن أطيل عليك فى سرد حكاية أنت تعرف خطوطها العريضة وأظن أن هذا يكفى

عندما أصبحت -فريدة- داخل الشقة وجدت -علاء- يجلس أمام منضدة تحمل مقبرة يرقد فيها آلاف الجثث من السجائر....والأخيرة تلهث فى فمه مقاومة سكرات الاحتضار ، ألقت التحية ليجاوبها بصمته ، خلعت حذائها وسترتها ليأتيها صوته يقول :

--اين كنتِ ؟-

--كنت فى زيارة لأحمد اسماعيل فى المصحة-

ابتسم ابتسامة باهتة قبل أن يقول :

--أحمد اسماعيل دخل بسببك المصحة-

أذهلتها جملته الأخيرة فأعدلت زواية وقفتها لتصبح أمامه مباشرة فى وضع هجومى قائلة فى تساؤل ممزوج بالاستغراب :

--مــاذا ؟!-

دفن السيجارة فى القبر الذى يعج بمثلها وتنهد وقال بنفس النبرة :

--أحمد اسماعيل دخل المصحة بسببك ، مطاوع مات مدمنا حقيرا تاركا خلفه أسرته التى تحتاج له...بسببك ، شهاب مات محروما من حلمه بالمنزل والأسرة والاحتواء...بسببك ، نسمة ماتت بعد أن لوح لها الأمل فى الافق بسعادة تاركة خلفها أحلام جميلة صافية...بسببك ، وكيل مات بدون أن يعرف اذا كان ابنه حى أم لا...مات بطريقة بشعة وحالت جثته بدون عيون....بسببك ، ابن أحمد مات رضيعا قبل أن يدرك أنه حى وهكذا تدمرت أسرة كاملة.....بسببك-

كان -علاء- يزداد انفعالا وعبراته تهطل بغزارة من عينيه ونبرته يجتاحها تذبذب البكاء العنيف

-فريدة- كانت تنظر فى ذهول محاولة فهم ما يقوله....كانت عيناها تتسع وهى تراقب زوجها يبكى بحرقة وهو يهذى بكلام غريب !

تنهدت وقالت فى آسف :

--اهدأ يا علاء ! ، هيا ننام لتريح أعصابك-
هنا نهض -علاء- كالملدوع واتجه ناحيتها بسرعة مما أجفلها واثار فزعها ، كانت عروقه تحاول الخروج من عنقه وقد برزت بطريقة عنيفة بينما يقول بانفعال :
--أنـا أعـشـقك يا فـريـدة ، أعشقك وانتِ لم تحبينى يوما....هذا ما جعلنى أذهب الى جنينة الساحرة واطلب منها الحل لتخبرنى بأنى يجب أن أقتل وأقدم الجثث قرابين ليستمر حبك لـى ، هكذا بدأت أقتل وأنا لا أفكر فى شىء سواكِ ، ولكنى أدركت متأخرا أن كل هذه الدماء لم تجلب لى ما أحتاجه..لم تجلب لى حب حقيقى يا فريدة...انتى لا تحبينى يا فريدة ، بالتأكيد شعرتى بهذا الآن وهذا طبيعى لأن موعد العزيمة انتهى وانتهى مفعولها....هكذا ستطلبى منى الطلاق مثلما تفعلى عندما يقترب موعد التنفيذ-
كانت -فريدة- شاخصة العينين تحدق فيه بذهول ! ، هل يهذى أم هذه حقيقة ؟!
الأسئلة والذهول لم يمنعوها كانثى من الدفاع عن نفسها...قالت فى لهجة حنونة :
--علاء أنا لم أطلب منك الطلاق سوى مرة واحدة عندما حدثت مشكلة بسبب.
-..
صمتت فجأة ! ، لم يتجاوز باقى الكلام حلقها....فقد مزقته هذه التآوهات التى تصدرها بوهن
كيف ستكمل كلامها مع هذا السكين الذى غمد نصله فى قلبها ، أخذت الدماء تزحف ببطء خارجة من الثقب الصغير الذى سببه اختراق النصل الحاد ، ظنت أن -علاء- جرحها بدون قصد...ثم ان هذا الجرح من الممكن علاجه ، ولكنها غيرت رأيها عندما وجدت أن السكين لا يتزحزح من مكانه....ووجه -علاء- تهجمه امارات بكاء عنيف أدى الى ارتجاف شفتيه وسيل عبرات قليلة من عينيه
--لن أستطيع نسيانك والعيش بدونك وانتِ مازلتِ شىء مادى يتحرك ويتنفس ، ولكنى ان أصبحتِ جثة طمسها التراب....سيكون هذا أمر واقع وسأنساكِ حتما ، لن أستطيع أن استمر فى القتل حتى نهاية عمرى ، لن أستطيع عمل العزائم والسحر مرة أخرى

كنتِ ستطلبى الطلاق بالتأكيد.....هذا هو طلاقك منى يافريدة-
قالها ثم جعل السكين يغوص داخل جسدها حتى مقبضه
انتفض جسدها لوهلة مقاوما الألم ، كانت حتى آخر لحظة منتظرة أن تراه يضحك بهيستريا قائلا أن هذا مقلب سخيف ثم تاعتبه وتلتزم الفراش ليأتى هو ويصالحها
ولكن هذا لم يحدث....هذا حقيقى ، -علاء- قتلها !
لسبب لم تفهمه جيدا.....فهمت فقط أنه قتل وقدم قرابين لساحرة لتجعله يحبها...وهو من قتل ابن -أحمد اسماعيل- ! ، فهمت فقط أن يعيش معها طوال تلك السنوات وهو يقتل ويمارس السحر فقط لتحبه ! ، ظناً منه أن ما يفعله هو ما يجعلها تحبه !
كل هذه الحقائق وهذه الأحداث فى اللحظات القليلة هذه ! ، ان النهاية تهوى عليك بدون انذار...تطبق على أنفاسك للحظات لتجد أن كل شىء انتهى فجأة !
لم تتحمل أكثر...فأخذ جسدها يهوى وقواها تتبدد و-علاء- يسندها وكأنه يبطىء من نهايتها قليلا !
بصوت يجتاحه الألم ويستلل الحزن الى نبرته قالت :
--يـــا غـــبى ! ، أنا أحبـــك.....أعـــشـــقك -
أصبح المشهد لا يحمل سوى أصوات الأنفاس المتلاحقة ونبض القلب الهادر ، نظر -علاء- بذهول شديد الى -فريدة- التى هوى جسدها وسقط ليزداد الألم وتستمر الدماء فى متابعة طريقها الى الخارج
أخذ يتأملها غير مصدق ما سمعه للتو ! ، نظرت له بضعف فأدركته...فقالت بصعوبة بالغة :
--أحبك يا علاء.....لم أكرهك يوما-
تحرك مصهور البكاء الساخن عبر تجويف روحه....لتلفظه عيناه بعنف وهو يتأمل حبيبته تلفظ أنفاسها الأخيرة ، كـــيف ؟! ، العزيمة انتهت ! اذن...اذن ! اذن كل هذه الدماء لم تكن قرابين ، كل هذه الأرواح لم يكن فى حاجة لها !
-جنينة- ! ، -جنينة- كان تحتال عليه...استغلت نقطة مهمة تظهر كالشمس فى شخصيته...وجعلته يبصق الأموال ويشرب الدماء !

-فريدة- كانت تحـــبه !!
وكل هذه الدماء التى أغرقت حياته كان هدرا للأرواح
لم يستطيع التحمل.....سقط أرضا بجانب حبيبته وقد تملكه البكاء العنيف ، أخذ يبكى كطفل وهو يقبل وجهها الذى يقطن فيه البرود....يمكث فيه الموت
تعالت دقات صاخبة على باب الشقة ومن خلفه صوت جهور يقول :
--افتح يا أستاذ علاء ، مبـاحـث-
الخفير هو من فعل هذا ، بالتأكيد ذهب الى المركز وسكب كلماته المحمسة ليذهبوا ويداهموا الشقق حتى وجدوا بقايا دماء -بثينة- فى شقتها ، مع شاهد أو شاهدين شاهدوا دخوله وخروجه سيغلقوا القضية بسرعة وبشكل جميل... بعد أن يعثروا على الجثة ، ان وجدوها
--نعرف يا أستاذ علاء انك بالداخل...ان لم تفتح سندخل بطريقتنا-
كان يجهش بالبكاء بجانب الجثة ويقبلها بحب قائلا :
--أنا آســف ! ، لا تتركينى...أقبل يداكِ لا تتركينى ، أرجووووكِ يا فريدة-
نبرته لم تكن واضحة بفعل البكاء العنيف الذى يكاد أن يؤدى به ، لم يكن مدركا لما يحدث.....لا لهذه الطرقات ولا لهذه الدماء
--سنتناول العشاء بالخارج.....أنا جائع جدا يا حبيبتى....جداااا-
--سنكسر البـــاااب-
--لا تقلقى لن نتأخر ، أعرف أنك تحبى النوم مبكرا-
--اكسروا البااااب-
اقتحموا المباحث الشقة ليجدوا ما أجبرهم أن يظلوا واقفين ليراقبوا ما يحدث فى ذهول !
كان -علاء- راقد بجانب الجثة وأطرافه ترتجف ويبكى بشدة...بطريقة جديدة لا تلائم رجل بالغ ! ، ويقبل الجثة كالمجنون ويتحدث معها بنبرة غير واضحة ، ولكنهم استطاعوا التقاط بعض الجمل مثل :
--سآتى لك قريبا....سأكون آخر قربان لحبنا - !
* * *
وجدت الغجرية بسهولة..

ما ان خرجت من مدخل المشفى حتى وجدتها تقبع هناك على جانب الطريق وتنظر لى فى برود استحوذ على امارات وجهها
لا أحد يرى ذلك الوجه الجامد المنكمش والشعر الثائر والملابس الرثة.....ويبتهج ! ، ولكنى فعلت رغما عنى
هرعت ناحيتها فى لهفة حتى بلغتها ، جثوت أمامها وقلت متوسلة :
--انه يتعذب ! أوقفى هذا-
--أجل ، انه ينهار-
أردفتها بلهجة سادية مثيرة للدراسة !
-- كيف عرفتِ ؟!-
قالت مبستمة :
--لقد كنت عنده ، وقابلته وتحدثت معه ، انه يعيش أسوء لحظاته -
--لم أعد أريد هذا-
--هل ستسامحينه بعد ما فعله معكى ؟!-
--أجــل-
لم تنطق ، بل فضلت التحديق فى الفراغ وعيناها لا تدور فيها أفكــار ، فى الواقع هذا شيء معتاد فدائما عيناها هكذا
واضح أنها تفعل هذا عن حب ، لا أبتلع فكرة أنها تحبنى لدرجة أنها لا تريد التراضى عن حقى الذى تنازلت عنه ! ، ولكن تلك حقيقة يجب أن اتعامل معها
---ورحمة والدتى اوقفى هذا -
لم تستغرق وقت لتفكر أو تستوعب أن أقسمت عليها برحمة والدتى ، ما ان سمعت الجملة حتى اندلقت الحروف من فمها :
--اذهبى لتطمئنى عليه-
عدوت ناحية المشفى ونبضات قلبى تزيد من اندفاعى ، لا أعرف أنى أمتلك تلك السرعة الجنونية
تجاوزت المدخل ثم صعدت الدرج وهرولت بين الأروقة ..
لا أصدق أنى سأرى عيناه مفتوحة مرة أخرى ، وحبائله الصوتية تصدح فى الفراغ ، سأشتم رائحته وأنصت الى انفاسه واقبله بعنف ، سأفعل كل ما أعجز عن

فعله ، سأقضى حياتى بأكملها اتأمل تقاسيم وجهه
سيعتذر ، أعرف هذا ، سيقبل يداى ان لزم الأمر ليسامحنى ، انه يحبنى وأدرك هذا جيدا...رأيتها فى عيناه ، دائما العاشقين تفضح عيانهم امرهم ، دائما نظراتهم تنم عما بداخلهم
ها انا ذا وصلت الغرفة..
انه استيقظ !
رفع جفونه وتأمل الموجودات غير مصدق بأنه قد نجا ، ارتسمت الفرحة على حركة عظام وجهه
نظر لى !
أخيــرا تقابلت عيوننا !
مازال يتنفس بصعوبة لكن لا بأس
ابتسم لى والأسف يتكدس فى نظراته ، شفاهه تتحرك ببطء استعداد لالقاء الكلمات ، الكلمات التى ستعيد بناء كل ما تم هدمه
فى اللحظة التالية تعالى صوت الصفير ليدوى فى الغرفة ، أخذ يتردد ذلك الصوت اللعين وتعج به أذناى ، يضرب رأسى من كل جهة حتى كدت أفقد توازنى ، انى أفقد توازنى حقا ، ان الصورة أصبحت ضبابية...الظلام يتخلل عيناى ببطء يستفز الأعصاب
سقطت أرضا ولكن الرؤية مازالت مسموحة بشكل ما ، ان الأطباء اقتحموا الغرفة فى فزع ، منهم من اتجه ناحيتى ومنهم من ألقى نظرة على جهاز رسم القلب ليدركوا أنه لا يكف عن رسم خط واحد لا نهاية له..
مازال عقلى يحتفظ ببعض اليقظة مع تلك الصفعات الخفيفة من ذلك الطبيب المذعور ، لذلك استطعت سماع تلك الجملة من أحدهم :

--البقاء لله-

بتكتب روايات .. قصص .. شعر أو مقالات

بتكتب عربي أو انجلش ..

أو حتي بترسم .. تواصل معانا و هنساعدك

تلاقي مكان لابداعاتك

تواصل معنا:-

٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١

website : www.fasla.org

E-mail :- Fasla.Pub@Gmail.com

Facebook.Com/Fasla.Pub